
روايات مصرية
30
سلسلة الأعداد الخاصة
رجل المستحيل
الكلمة الأخيرة
د. نبيل فاروق
ساحر الكتب

إهداء

إلى (أدهم صبرى) ...

إلى (رجل المستحيل) ...

بعد رحلة قطعناها معًا ، عبر ما يقرب من ثلاثة عقود ونصف ...

وقبل أن نفترق أخيرًا إلى الأبد ...

لم تعد لدى سوى كلمة واحدة أرويها عنك ...

كلمة أخيرة .

د . نبيل فاروق

الفصل الأول

« الملازم صبرى محمد المصرى ؟!...

رفع (صبرى) يده بالتحية العسكرية ، أمام ذلك الضابط العظيم ، الذى استقبله فى حجرة مكتب صغيرة ، فى معسكر تدريب قوات الصاعقة ، وهو يتساءل فى أعماقه ، عن سر استدعاء ضابط كبير كهذا ، لملازم شاب مثله ، ولكنه ـ كعادته ـ حافظ على ثباته ، وملامحه الجامدة ، ووقفته العسكرية الصارمة :

ـ أفندم .

تطلّع إليه الضابط الكبير فى اهتمام ، من رأسه حتى بيادته الجلدية الثقيلة ، وكأنما يحاول التأكُّد من أنه الشخص نفسه ، الذى أتى من أجله ، قبل أن يفتح ملفًا أمامه ، ويطالع أوراقه لحظات :

ـ تبلى بلاءً حسنًا ، فى قوات الصاعقة أيها الملازم

غمغم (صبرى) :

ـ أؤدى واجبى فحسب .

لم يرفع الضابط الكبير عينيه عن الأوراق :

ـ تقارير قادتك تؤكِّد ، أنك شخص شديد الالتزام ، جم النشاط ، تؤدى المطلوب منك دومًا ، فى سرعة ودقة ، وتخطط جيدًا ، لكل عملية تقوم بها .

كرَّر فى خفوت :

ـ أؤدى واجبى فحسب .

تابع الضابط الكبير :

ـ وفى الأسبوع قبل الماضى ، خضعت لاختبار ذكاء خاص ، مع عدد من زملائك الضباط ، وفاقت نتائجك كل ما حققوه .

انفرجت شفتا (صبرى) ، ثم عادتا تلتقيان ، وكأنما لا يجد ما يقوله ، لم يفت هذا الضابط الكبير ، فأغلق الملف ، ورفع عينيه كاملتين إليه :

ـ هل يروق لك العمل هنا أيها الملازم ؟!

تمتم :

ـ كثيرًا يا فندم .

عاد الضابط الكبير يفحصه بنظراته :

ـ وماذا لو أنه هناك عمل آخر ، يصلح لك أكثر ؟!

حاول (صبرى) أن يشد قامته أكثر :

ـ أنا فى خدمة الوطن ، فى أى موقع يا سيدى .

للمرة الثالثة ، فحصه الضابط الكبير بنظرات ثاقبة ، ثم دفع إليه ورقة صغيرة ، وهو ينهض فى حزم :

ـ تواجد فى هذا العنوان ، فى السابعة من صباح الغد ، واحرص على ألا يعلم بهذا أحد .

التقط (صبرى) الورقة ، فى حذر لم يفهمه ، فى حين اتجه الضابط الكبير نحو باب الحجرة ، دون أن يلتفت إليه :

ـ لا تستشر قادتك ... نحن تولينا كل شىء ...

نحن ؟!...

لم يفهم (صبرى) ما يعنيه هذا الضابط الكبير بكلمة (نحن) هذه !!...
أهو يعنى القوات المسلحة ؟!...

أم جهة أخرى ؟!...

قبل أن تتمادى تساؤلاته ، أدار الضابط مقبض الباب :

ـ بالمناسبة أيها الملازم ... احرص على نظافة زيك الميدانى وكيه .

ثم التفت إليه ، مستطردًا :

ـ لأنك لن ترتديه مرة أخرى ... أبدًا .

اتسعت عينا (صبرى) ، والعبارة الأخيرة تخترق قلبه ، كسيف بارد شديد الألم ...

كيف ؟!...

كيف يمكن ألا يرتدى ثانية ذلك الزى، الذى يعشقه ، ويشعر بالفخر لانتمائه إليه ؟!...

كيف ؟!...

ظلت الفكرة تؤرقه ، على الرغم من انشغاله بما حدث ، حتى أنه لم يغمض له جفن طوال الليل ، إلى أن وجد نفسه يقف ، فى السابعة إلا الربع صباحًا ، أمام ذلك العنوان ، الذى تركه له الضابط الكبير ...

العنوان الذى زاد من حيرته ، منذ لقاء الأمس ...

والذى لا يمكن أن يخطئه أحد ...

عنوان مبنى المخابرات العامة المصرية ...

عند البـوابة ، التى تم تحـديدها فى العنـوان ، قـدَّم بطاقتـه العسكـرية ، فاستقبله رجال أمن البوابة فى احتـرام ، وسرعـان ما أتت سيارة ، حملتـه بزيه المدنى إلى أحد المبانى فى الداخل ، حيث أدخلوه إلى حجـرة واسعة ، لم تحو سوى مكتب بسيط ، وثلاثة مقاعد أحدها خلف المكتب ، وصورة كبيرة لرئيس الجمهورية آنذاك ، ومرآة متوسطة ، على جدار الجانب المقابل من الحجرة ...

مضت نصف الساعة تقريبًا ، وهو يجلس وحده فى الحجرة ، قبل أن يدخل إليه رجل طويل القامـة ، رياضى القوام ، صافحـه فى قوة ، مع ابتسامة هادئة ودود :

ـ السيد (صبرى محمد المصرى) ؟!

رفع (صبرى) يده بالتحية العسكرية ، على نحو غريزى :

ـ الملازم (صبرى محم ...)

قاطعه الرجل بابتسامة هادئة :

ـ لا توجد أية رتب أو ألقاب هنا .

ثم دار ليجلس خلف المكتب :

ـ اللقب الوحيد المستخدم هنا هو (السيد) .

غمغم :

ـ قرأت شيئًا عن هذا .

منحه الرجل ابتسـامة ودود أخرى ، ثم فتـح درج المكتب الوحيـد ، وأخرج منه ما يشبه كراسًا كبيرًا ، وضعه أمامه ، مع مجموعة من الأقلام .

ـ عليك أن تملأ هذا .

لاحظ (صبرى) شعار المخابرات العامة على الغلاف ، وقلَّب الصفحات فى سرعة :

ـ كل هذا ؟!

نهض الرجل فى هدوء :

ـ نعم ... كله ... خذ وقتك .

وتركه ، وغادر الحجرة بنفس الهدوء ، الذى يتميَّز به ...

فتح (صبرى) الكراس ، وكان يحوى عددًا من الأسئلة ، عن كل شىء فى حياته تقريبًا ، وعن أقاربه ، حتى الدرجة الثالثة ، وزوجات وأزواج أقربائه ، وبيانات أخرى ، أدهشه أن يطلبها منه أحد ...

ولكنه التقط قلمًا ...

وبدأ الإجابة ...

عن كل الأسئلة ...

« (صبرى) ... لماذا تبدو شاردًا ؟!... » ...

التفت إلى خطيبته الرقيقة ، التى نطقت العبارة فى خفوت قلق ، وحاول أن يبتسم ، وهو يجيبها :

ـ كنت أفكِّر فى حفل زفافنا المقبل .

اقتربت منه فى حنان :

ـ ألا ينبغى أن نفكِّر فى هذا سويًا .

مرة أخرى حاول أن يبتسم :

ـ بالتأكيد .

كانت تشعر بشىء من القلق فى أعماقها ؛ فهى تعرفه منذ طفولتهما ، بحكم كون العائلتين متجاورتين ، وتدرك جيدًا ، أنه يخفى شيئًا ما ...

ولكنها ، وبحكم معرفتها ، لم تحاول أن تسأله ...

ربما لأنها واثقة من أنه لن يجيب ...

« لا ريب فى أنك ترغب فى إنجاب ذكور » ...

ابتسم ، وهو يلتفت إليها متسائلًا ، فتابعت فى خجل :

ـ عائلتك كلها عسكرية ، ولا ريب فى أنك ترغب فى أن يسير أولادك على النهج نفسه !

داعب شعرها فى رفق :

ـ عائلتك أيضًا عسكرية .

هزَّت رأسها نفيًا :

ـ والدى فقط ... وكنا قلما نراه ، أو نحظى بوجوده .

ثم استدركت فى سرعة :

ـ ربما لهذا لست أرغب فى أن يصبح أولادى عسكريين .

تمتم :

ـ سيضعهم الله سبحانه وتعالى حيثما يريد لهما .

قالت فى إصرار :

ـ على ألا ينخرطوا فى العسكرية .

ضحك :

ـ هناك أمر ضرورى فى البداية .

سألته فى قلق :

ـ أى أمر ؟!

أطلق ضحكة مرحة :

ـ أن ننجبهم أولًا .

ضحكت فى حياء ، وهى تشيح بوجهها ، وضحك هو أيضًا فى مرح حقيقى ...

ثم عاد ذهنه يشرد ...

وفى هذه المرة ، لم تحاول سؤاله ...

أبدًا ...

* * *

انهمر الجليد السوفيتى فى كثافة ، فى تلك الليلة ، وانخفضت درجات الحرارة ، على نحو غير مسبوق ، مما برر ذلك الدخان الكثيف ، المتصاعد من مدفأة منزل الكاتب السوفيتى الشهير (أندروفيتش) ، فى نفس الوقت ، الذى شهدت فيه تلك الشوارع ، شبه الخالية ، بعد منتصف الليل ، حركة غير طبيعية ، لجنود مدججين بالسلاح ، ينتشرون فى كل الطرقات ، ويحاصرون المبنى فى حذر ...

وعبر نافذة المنزل ، المطلة على الساحة ، ألقت (ساشا) ، زوجة (أندروفيتش) نظرة من خلف الستار ، وارتجف صوتها ، فى رعب حقيقى ، وهى تقول :

ـ (أدرو) ... إنهم هنا .

غمغم فى توتر ، وهو يلتقط كومة أخرى من الأوراق ، ويلقيها وسط نيران المدفأة :

ـ كنت أعلم أنهم لن يتأخروا .

تمتمت شبه باكية :

ــ لقد حذرتك .

التقط رزمة أخرى من الأوراق فى توتر :

ــ هذا آخر شىء ... لن يجدوا دليلًا واحدًا .

انهارت على مقعد قريب :

ــ وهل تعتقد أن أمثالهم يحتاج إلى دليل ؟!

اعتدل ، يراقب الأوراق تحترق فى نيران المدفأة ، قبل أن يلتفت إليها فى يأس :

ــ كلا .

لم يكد ينطقها ، حتى اقتحم رجال الأمن المكان ، فى عنف شديد ، أطاح بباب الشقة ، واندفعوا يحيطون بالكاتب وزوجته ، التى انهارت تمامًا ، فى حين هتف هو :

ــ فلتحيا الحرية .

عبر الجنود شاب أشقر الشعر ، ضيق العينين ، عريض الفك ، وضع على رأسه قبعة من الفراء ، ويدخِّن سيجارة سوفيتية نفَّاذة الرائحة ، وغمغم فى برود قاس :

ــ الحرية شىء جميل .

ثم ألقى السيجارة على سجادة المكان ، وسحقها بقدمه فى هدوء :

ــ ولكن مفهومه يختلف ، من وطنى إلى خائن .

بكت زوجة (أندروفيتش) فى انهيار ، فى حين سأل هو فى عصبية :

ـ ومن تعتبر نفسك منهما أيها الضابط ؟!

هزَّ الضابط الشاب كتفيه ، بنفس البرود :

ـ من موقعى أم من موقعك أيها الرفيق ؟!

أجابه فى حدة :

ـ من وجهة نظر الحرية .

أشعل الضابط الشاب سيجارة جديدة ، انتشرت رائحتها ، مع التيار البارد المتسلِّل من الباب المكسور :

ـ حرية الشعب ، تحتم أحيانًا قهر حرية الفرد .

هتف (أندروفيتش) :

ـ أهذا ما علّموك إياه ؟!.

أما زوجته ، فراحت ترتجف :

ـ أرجوك ... أنا لم أفعل شيئًا ... لا أريد أن أموت فى (سيبريا) ... أرجوك .

ألقى الضابط الشاب عليها نظرة ، خالية من أى تعاطف ، قبل أن يلتفت إلى زوجها :

ـ الأمر لا يتعلَّق بما علمونى ، ولكن بما أؤمن به .

قلب (أندروفيتش) شفتيه فى ازدراء :

ـ كل رجال الأمن ، يؤمنون بمبدأ مقايضة الأمن بالحرية .

نفث الضابط دخان سيجارته فى برود :

ـ هذا ما يحافظ على العلم السوفيتى خفاقًا .

هتف الرجل :

ـ العلم سيسقط ، كما سقطت أنظمة كثيرة من قبل ... كل نظام اعتمد على القهر ، انتهى به الأمر للسقوط .

انعقد حاجبا الضابط الكثان ، ومال نحوه ، فى صرامة قاسية :

ـ أهذا ما تتصوّره ؟!... أهو ما دفعك للعمل مع الأمبراليين ؟!

شدّ الرجل قامته فى اعتداد :

ـ أنا أعمل من أجل الحرية فحسب .

انهارت زوجته ، فى هذه اللحظة ، وتشبثت بسروال الضابط الشاب ، هاتفة فى رعب :

ـ لا أريد أن أموت فى (سيبريا) ... أرجوك .

دفعها بقدمه فى قسوة ، وهو يخرج مسدسه :

ـ لن تموتى فى (سيبريا) .

وأطلق رصاصتين على رأسها ، متابعًا فى قسوة وحشية :

ـ ستموتين هنا .

صرخ الكاتب مصعوقًا ، وهو يرى عينى زوجته تجحظان ، والدماء تتفجّر من رأسها ، قبل أن تسقط جثة هامدة :

ـ (ساشا) ... لا .... أيها الحقير .

وثب نحوه ، ولكن أحد رجال الضابط واجهه بضربة قوية ، على مؤخرة رأسه ، من كعب مدفعه ، فسقط إلى جوار زوجته ، وغاص كفاه فى دمائها ، وهتف فى تخاذل :

ـ أيها الوحوش .

صوَّب الضابط مسدسه ، إلى رأس الرجل ، وهو يقول للجنود :

ـ شاهدتم كيف قاوم ... أليس كذلك ؟!

ثم أطلق رصاصتين على رأس الكاتب ، وهو يتراجع خطوتين ، حتى لا تلوُّث الدماء المتناثرة ثوبه ، وبعدها أعاد المسدس إلى جرابه في هدوء قاس، والتقط جهازه اللاسلكى :

ـ حدث ما توقعته تمامًا ، أيها الرفيق الجنرال ... لقد قاوما ... بالطبع ... قمت بتصفيتهما كما أمرت ... المهمة تمت بنجاح ... الملازم (سيرجى كوربوف) فى خدمتك وخدمة الوطن والشيوعية دومًا ، أيها الرفيق الجنرال ، أدى التحية العسكرية ، وكأنه يقف بالفعل أمام الجنرال ، فأدى جنوده كلهم التحية بدورهم ، ثم عادوا يقفون صارمين ، فأشار إليهم :

ـ ضعوا الوثائق التى أحضرتموها معكم هنا ، وبعثروها فى المكان ، ثم عودوا إلى ثكناتكم .

وألقى نظرة أخيرة على جثتى الكاتب وزوجته ، قبل أن يستطرد :

ـ لقد تمت المهمة ... بنجاح .

ودون أية مشاعر ، استدار ، مغادرًا مسرح الجريمة ...

أو مسرح العملية ...

حسب الجانب ، الذى تقف فيه ...

***

ارتسمت ابتسامة ، على وجه رجل المخابرات (حسام) ، وهو يدلف إلى حجرة مكتب (صبرى) :

ـ أخبرونى أن مولودك الأوَّل قد وصل .

أومأ برأسه ، فى شبه شرود :

ـ نعم ... فجر اليوم .

جذب مقعدًا ، وجلس أمامه :

ـ لماذا تبدو شاردًا إذن ؟!

حاول (صبرى) أن يبتسم :

ـ ليس شرودًا ... إننى مستغرق فى التفكير فحسب .

تطلَّع إليه (حسام) ، ثم مال نحوه :

ـ ماذا أسميت مولودك الأوَّل ؟!

غمغم :

ـ (أحمد) .

تطلَّع إليه لحظات أخرى :

ـ يلوح لى أنه ليس سبب شرودك .

رفع عينيه إليه :

ـ أخبرتك أننى مستغرق فى التفكير .

هزَّ كتفيه :

ـ فيم ؟!... لقد أنجزنا مهمتنا الأخيرة بنجاح ، ولا يوجد جديد حتى الساعة .

تطلَّع إليه (صبرى) فى صمت لحظات ، ثم حمل صوته كل الاهتمام :

ـ صحيح أنها انتهت بنجاح ، ولكن كان يمكن أن تكون أفضل بكثير ، لو أن ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، فسأله فى اهتمام :

ـ لو ماذا ؟!

تردَّد (صبرى) لحظات ، ثم بدا بعدها ، وكأنه يحدِّث نفسه :

ـ لو أن (مؤمن) كان أكثر مرونة ، و (خالد) أكثر إتقانًا للفرنسية ، ولو أن (عبد الرحمن) يمكنه أن يعدو أسرع ، وإذا كان ...

قاطعه بإشارة من يده :

ـ مهلًا يا رجل ، نحن نتحدَّث عن رجال مخابرات ، وليس عن أبطال أولمبياد .

تطلَّع إليه (صبرى) لحظات ، ثم تنهَّد :

ـ أعلم .

ابتسم (حسام) :

ـ يبدو أنك تشاهد الكثير ، من الأفلام الأمريكية والإنجليزية .

سأله (صبرى) شبه شارد :

ـ تقصد أفلام الحركة ؟!.

أجابه :

ـ بل أفلام الجاسوسية ... لقد صنعوا أبطالًا وهميين ، يستحيل أن تجد مثلهم فى عالم الواقع .

بدا وكأن العبارة قد جذبت انتباهه فى شدة :

ـ ولم لا ؟!

هزَّ (حسام) كتفيه ، وقلب كفيه :

ـ لأنه على شاشة السينما ، يمكن للبطل أن يمتلك كل ما يريده كاتب
السيناريو والمخرج من قدرات ، دون أية حدود ، كما يوجد بدلاء ؛ للقيام
بالأدوار الخطرة ، والمشهد الواحد يمكن إعادته عدة مرات ، وإصلاح الأخطاء
فى كل مرة ، أما فى عالم الواقع ، فالأمر يختلف تمامًا .

بدا (صبرى) شديد الاهتمام ، وهو يسأله :

ـ ولماذا ؟!

تطلّع إليه (حسام) لحظات فى دهشة ، ثم مال نحوه :

ـ ماذا بك اليوم ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ لا شىء ... إننى أسألك فى جدية ... لماذا لا يمكن أن يكتسب رجل ، فى
عالم الواقع ، قدرات البطل السينمائى .

هتف :

ـ لأنها مستحيلة !

بدا (صبرى) شديد الإصرار :

ـ ولماذا مستحيلة ؟!

مال (حسام) نحوه أكثر :

ـ هل تعلم كم يحتاج اللاعب الأوليمبى ؛ ليتفوق فى مهارة واحدة ؟!

أجابه فى جدية :

ـ هذا يتوقّف على مهارة مدربه .

اعتدل (حسام) :

ـ فى كل الأحوال هى سنوات .

بدت علامات التفكير على (صبرى) ، فى انعقادة حاجبيه ، فتابع :

ـ وهذا بالنسبة لمهارة واحدة ، فما بالك بعدة مهارات .

تراجع (صبرى) فى مقعده ، وبدت عليه علامات تفكير جدى ، مع صوته الشارد :

ـ هى مسألة عمر إذن ؟!

أجابه (حسام) فى إصرار :

ـ وقدرات أيضًا .

كرّر (صبرى) ، وكأنه سابح فى عالم آخر :

ـ عمر وقدرات .

أطلق (حسام) زفرة طويلة ، وهو ينهض :

ـ يبدو أنك تحتاج إلى إجازة .

أسبل (صبرى) جفنيه :

ـ هذا صحيح .

استند براحتيه على سطح المكتب :

ـ قم بها إذن ... اقض أسبوعًا مع زوجتك ... ستحتاج لوجودك إلى جوارها، فى هذه المرحلة .

واتجه نحو الباب ، والتفت إليه ، وهو يفتحه :

ـ وأعط عقلك إجازة أيضًا ؛ فهو فى أشد الحاجة إليها .

ابتسم (صبرى) ابتسامة باهتة ، حتى غادر (حسام) المكتب ، وأغلق بابه خلفه ، فرفع ذراعيه ، واستند إلى ساعديه برأسه ، وعاد يردِّد :

ـ العمر والقدرات .

وكان من الواضح أنه هناك فكرة تسيطر على عقله ...

بل على كيانه كله ...

تمامًا ...

***

حملت ملامح (دافيد جراهام) ، رجل (الموساد) الإسرائيلى كل التوتر
وهو يقف أمام رئيسه ، فى ذلك المبنى ، الذى يتوسَّط مقر (الموساد) ف
(إسرائيل) :

ـ كيف خسرت تلك العملية يا (جراهام) ؟!... لقد كلفنا هذا الكثير جدً

غمغم (جراهام) :

ـ لقد باغتونا يا جنرال ، و ...

قاطعه الجنرال فى حدة :

ـ أهذا عذر أم ذنب ؟!... المفترض أن تضع خطتك ، متضمنة كل الاحتمالا
وألا تترك بها ثغرة ، تسمح لأحد بمباغتتك .

زفر فى توتر :

ـ بالتأكيد يا جنرال .

قال الجنرال ، فى غضب صارم :

ـ نحن نعد هذه الخطة ، منذ عامين ، فكيف أفشلتها ، فى أقل م
ساعتين .

غمغم :

ـ إننا نواجه عقلًا مختلفًا هذه المرة .

سأله الجنرال :

ـ ومن هو ؟!

هزَّ (جراهام) رأسه فى بطء :

ـ لم نتوصَّل إليه بعد .

بدا الجنرال شديد الصرامة :

ـ استخدم كل مصادرك ... كل عيونك ... كل من يعملون لحسابنا ، على نحو مباشر فى (مصر) ... المهم أن تعرف من صاحب هذه العقلية الجديدة .

غمغم :

ـ إنه مخطِّط ، من الطراز الأوَّل ... لاعب شطرنج ، لا يشق له غبار ... يستخدم تكنيكات جديدة ، والتفافات مبتكرة ، حتى أنه نجح فى زرع أحد عيونه وسطنا .

اعتدل الجنرال على مقعده فى صرامة :

ـ اجلس مع مجموعة الخبراء ، وحاولوا دراسة أسلوبه ، ونمط تفكيره وتخطيطه ... حاولوا أن تكونوا لاعبى شطرنج ، أكثر حنكة ومهارة منه .

شدَّ (جراهام) قامته :

ـ سيستغرق هذا بعض الوقت .

التقط رئيسه قلمًا ، ودفن وجهه بين أوراقه ، وكأنما يعلن نهاية المقابلة :

ـ اختصروه بقدر الإمكان .

تمتم (جراهام) ، وهو يغادر المكان :

ـ سنحاول .

سألته (راشيل) ، زميلة دفعته ، وهى تستقبله خارج مكتب رئيسهما :

ـ هل أنّبك ؟!

أشار بيده :

ـ بل فعل ما هو أكثر .

سألته فى تعاطف :

ـ هل يوجد ما يمكن أن نساعدك به ؟!

التفت إليها :

ـ تتحدثين بصيغة الجمع !!

هزّت كتفيها :

ـ كنت أقصدنى مع (دزرائيلى) .

انعقد حاجباه :

ـ (حاييم دزرائيلى) ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، فتابع :

ـ ألم يتم زواجه على (إيفا) ؟!

أجابته فى سرعة :

ـ لقد عاد من إجازة الزواج .

توقّف ، والتفت إليها :

ـ (راشيل) ... مهمتنا هذه المرة ليست سهلة ... ستحتاج إلى جهد كبير وتعامل مع جيش من الجواسيس والعملاء .

غمغمت :

ـ لقد اعتدنا هذا .

سأل :

ـ وماذا عن (دزرائيلى) ؟!

أجابت فى حسم :

ـ أثق به تمامًا .

التقط نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ فلنبدأ إذن .

وكان هذا إيذانًا بمعركة جديدة ، ليس لها سوى نهاية واحدة ...
الموت ...

وبلا رحمة .

***



الفصل الثانى

رفع مدير المخابرات عينيه ، من الأوراق التى يطالعها ، ونظر لحظات ، إل
(صبرى) الواقف أمامه ، قبل أن يشير إلى مقعد مقابل لمكتبه :

ـ اجلس يا (صبرى) .

جلس (صبرى) فى شىء من الحذر ، وهو يتطلَّع إلى المدير ، الذى اعتد
على مقعده :

ـ رئيسك أرسل إلى البحث ، الذى قمت به .

غمغم (صبرى) :

ـ لقد درست كل شىء جيدًا يا سيادة الوزير ، وراجعت التجارب السابقة
فى هذا الشأن ، و ...

قاطعه المدير :

ـ وأضعت عامًا كاملًا فى هذا .

اندفع (صبرى) فى حماس :

ـ لم يتعارض هذا مع عملى ، فقد قمنا بعمليتين ناجحتين ، خلال هذ
العام ، وكلتاهما أسفرتا عن نتائج ممتازة .

تراجع المدير فى مقعده ، متطلعًا إليه لحظات فى صمت ، ثم لم يلبث
أن اعتدل :

ـ ما أعنيه هو أنه كان ينبغى أن تطرح الفكرة أولًا ، قبل أن تضيع كل هذ
الوقت فى إعدادها .

غمغم :

ـ أردت أن أثبت معقوليتها أولًا .

ردَّد المدير فى شىء من الصرامة المستنكرة :

ـ معقوليتها ؟!

ثم مال نحوه :

ـ ما أمامى هنا هو دراستك ، حول مدارس الـ (كى جى بى) ، عقب الثورة البلشيفية(*) .

أومأ (صبرى) برأسه :

ـ بالفعل يا سيادة الوزير ، فتلك التجربة هى الأقرب ، لما يدور فى ذهنى ... فعقب سيطرة الشيوعيين على نظم الحكم ، فى روسيا ، عقب الثورة ، قرَّروا القضاء على كل معارضيهم ومخالفيهم ، إما بالقتل ، أو بالنفى إلى (سيبريا) ، واحتفظوا بصغارهم لديهم ، فى مدارس خاصة ، وأطلقوا عليها اسم (مدارس الكى جى بى) ، وكان الهدف الأساسى منها فى البداية ، هو غسيل مخاخهم ، وإدراج عقولهم فى النظام الشيوعى الوليد ، الذى رفضه وعارضه ذووهم ، ولكن سرعان ما طوَّروا الفكرة ، وسعوا لصنع جيل جديد ، جيد التدريب والإعداد ، كنواة لجيش يدافع عن النظام، ويؤمن به إيمانًا تامًا(**) .

(*) الثورة البلشيفية : أو (ثورة أكتوبر ٢٥ أكتوبر ـ أو ٧ نوفمبر بالتقويم الجديد عام ١٩١٧م) كانت المرحلة الثانية من الثورة الروسية ، قادها البلاشفة ، بقيادة (فلاديمير لينين) ، وقائد الجيش الأحمر (ليون تروتسكى) ، وكامل الحزب البلشفى، والجماهير العمالية،بناءً على أفكار (كارل ماركس) ؛ لإقامة دولة اشتراكية ، وهى أول ثورة شيوعية، فى القرن العشرين، وأساس تكوُّن الاتحاد السوفيتى .

(**) حقيقة تاريخية .

انعقد حاجبا المدير، وهو يغمغم مستنكرًا :

ـ وأنت تتصوَّر أن هذا يمكن تكراره هنا ؟!

أجاب فى سرعة :

ـ ليس بالصورة نفسها بالطبع ، ولكن باستخدام تقنية مقاربة ... فنحن هنا

لا نعاقب المعارضين بهذه القسوة ، ولكن لدينا فئة ، يمكن أن تخضع للتجربة .

ربُت المدير على الأوراق أمامه فى صرامة :

ـ أطفال ملاجئ الأيتام ؟!

تراجع (صبرى) مغمغمًا :

ـ سنصنع منهم أبطالًا .

هتف المدير:

ـ بأى حق ؟!

تطلَّع إليه صبرى ، دون أن يجيب ، فتابع صارمًا :

ـ هؤلاء الأطفال لهم حقوق ، مثل كل الأطفال ، وأهم حقوقهم أن ينعموا

بطفولتهم ، وألا نصنع منهم فئران تجارب ، لمجرَّد أنهم قد فقدوا ذويهم .

تمتم (صبرى) فى يأس :

ـ وماذا عن النتائج ؟!

أجابه بكل صرامة :

ـ لا تمنحنا حق الاستيلاء على طفولتهم .

خفض عينيه ، وهو يشعر بغصة فى حلقه ، فصمت المدير لحظات ، حاول

بعدها التخفيف ، من توتر الموقف ...

ـ متى ستلد زوجتك ؟!

تمتم (صبرى) فى صعوبة :

ـ الطبيب يقول : خلال يومين أو ثلاثة .

مال المدير نحوه :

ـ وهل أنت سعيد بقدوم مولودك الثانى .

تمتم :

ـ بالتأكيد .

اعتدل المدير ، وحاول أن يبتسم :

ـ ولو جاء المولود ذكرًا ، هل تقبل أن تضيع طفولته ، فى تجربة كهذه ؟!

كان السؤال مباغتًا ، على نحو جعل (صبرى) يرفع عينيه إليه ، فى حركة حادة ، جعلت المدير يضيف فى حزم :

ـ هل ؟!

لم يجب (صبرى) ، ولكن كلمات المدير ، غرست فكرة جديدة فى ذهنه ...

فكرة عبقرية ...

أو مجنونة ...

للغاية ...

***

تراجع (حاييم دزرائيلى) فى مقعده ، وبدا شديد التوتر ، وهو يشير إلى (دافيد جراهام) فى عصبية :

ـ انتصار آخر لـ (الباشا) ... وهزيمة أخرى لنا .

انعقد حاجبا (راشيل) فى حدة :

ـ أكره لقب (الباشا) هذا ، الذى أطلقتموه عليه ، فعند المصريين ، يعـ
هذا اللقب تعبيرًا عن الاحترام والتقدير .

أجابها (جراهام) :

ـ مجرّد اسم عزيزتى (راشيل) ... مجرّد اسم ، ما دمنا نجهل اسمه الحقيقـ
حتى الآن .

قالت فى عصبية :

ـ اختاروا اسمًا آخر ، فالاسم هذا يستفز مشاعرى .

أشار إليها (دزرائيلى) فى صرامة :

ـ (راشيل) ... هذه السخافات تضيع الوقت ، وتدخلنا فى صراعات جانبية
لا طائل منها .

بدت شديدة العصبية :

ـ الاسم يستفزنى فحسب .

زفر (جراهام) فى ضيق :

ـ ولكنه صار الاسم ، الذى تحمله كل الأوراق الرسمية ، فى هذا الملف .

غمغمت مشيحة بوجهها :

ـ لا بأس .

تبادل (جراهام) نظرة مع (دزرائيلى) ، ثم اعتدل يسأله :

ـ سمعت أن (إيفا) أنجبت لك توأمين .

أومأ (دزرائيلى) برأسه :

ـ أسمينا أحدهما (موشى) ، باسم والدها ، والثانى (يارون) باسم عمى أنا .

غمغمت (راشيل) فى عصبية :

ـ أليس هذا أيضًا حديثًا جانبيًا ؟!

غمغم (جراهام) :

ـ هذا صحيح .

ثم اعتدل فى حزم :

ـ ينبغى أن نشحذ كل عقولنا ، من أجل قضيتنا هذه .

قلَّبت (راشيل) بعض الأوراق أمامها ، قبل أن تقلب شفتيها :

ـ كل جواسيسنا فى (مصر) ، لم يمكنهم التوصُّل إلى هوية ذلك الـ (باشا) .

أشار (دزرائيلى) بسبَّابته :

ـ ربما لا يبحثون بالوسائل المناسبة .

التفت إليه (جراهام) فى اهتمام :

ـ هل تقترح وسائل جديدة ؟!

تراجع (دزرائيلى) فى مقعده ، وهزَّ كتفيه :

ـ ربما .

اعتدلت (راشيل) بدورها ، وسألته ، فى اهتمام مماثل :

ـ هات ما لديك إذن .

مال نحوهما ، وبدا حازمًا :

ـ استمعا إلىّ .

واستمعا إليه بالفعل ...

وكانت خطته بالفعل جديدة ، ومبتكرة ...

وواعدة ...

كثيرًا ...

***

« الجنرال (ليونيد كورينكوف) ... »

تطلّع الجنرال السوفيتى إلى الملازم (سيرجى كوربوف) ، الذى نطق العبارة

فى ثقة شديدة ، وسأله فى اهتمام :

ـ أأنت واثق من أنه الخائن ، أيها الرفيق الملازم (كوربوف) ؟!

أومأ (سيرجى) برأسه ، مجيبًا فى حزم :

ـ منذ شككت فى أمره ، اتخذت قرارًا بمحاصرته ، على نحو غير رسمى ، أيها

الرفيق الجنرال ، فتعقبته خفية ، لأسبوعين كاملين ، تنكّرت خلالهما ، فى أكثر

من هيئة ، ثم انتهزت فرصة اجتماعه بالقيادة العامة ، وتسلّلت إلى منزله .

اعتدل الجنرال فى اهتمام :

ـ ولكن أمثاله يلجأون إلى نظم تأمين خفية ، لكشف أية محاولات للتسلّل

إلى منازلهم .

بدا (سيرجى) جم الثقة :

ـ علمت هذا أيها الرفيق الجنرال ، ولهذا فقد تسلّلت عبر المدفأة ، فى

حجرة الاسترخاء ، مرتديًا معطفًا من البلاستيك ، نزعته فور وصولى ، وقمت

يدس أجهزة التنصُّت الدقيقة ، فى عدة أماكن فى المنزل ، ثم ارتديت المعطف البلاستيكى ، وتسلقت المدفأة إلى الخارج ، دون أن أترك خلفى أى أثر .

سأله الجنرال بكل الاهتمام :

ـ أأنت واثق ؟!

ظلت ملامح (سيرجى) باردة جامدة كعادتها :

ـ لو راودته ذرة من الشك ، لما أمكننى تسجيل هذا الحديث .

ضغط زر جهاز صغير ، فانبعث منه صوت الجنرال (كورينكوف) ، وهو يتحدَّث مع أحدهم ، حول ما يعتبر أهم الأسرار العسكرية ...

ومع نفس عميق ، اعتدل الجنرال على مقعده ، وأشار بيده :

ـ عمل رائع يا (كوربوف) .

على الرغم من جلوسه ، شدَّ (سيرجى) قامته فى اعتداد :

ـ فى خدمة النظام الشيوعى ، أيها الرفيق الجنرال .

أومأ الجنرال برأسه ، وكأنما راق له ما سمعه ، وأشار بيده :

ـ كنا نبحث عن الخائن وسط صفوفنا ، منذ أكثر من عام .

غمغم (سيرجى) :

ـ أعلم أيها الرفيق الجنرال .

تطلَّع إليه الجنرال بضع لحظات فى صمت ، جعل (سيرجى) يتصوَّر أنها نهاية المقابلة ، فنهض فى حزم :

ـ اسمح لى بالانصراف ، أيها الرفيق الجنرال .

أشار إليه الجنرال فى صرامة :

ـ انتظر أيها الرفيق الملازم .

عاد (سيرجى) يجلس فى حذر ، فى حين سحب الجنرال ورقة من أمامه

وهو يقول فى صرامة :

ـ ما أنجزته ، فى هذه العملية ، جعلنى أدرك أن مكانك ليس فى صفوف

الأمن العام .

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثين ، وأطلّ تساؤل عميق من عينيه الضيقتين

فى حين خط الجنرال بضع كلمات ، على الورقة أمامه ، ثم ختمها بختمه

وناولها لـ (سيرجى) بنفس الصرامة :

ـ بل هناك .

التقط (سيرجى) الورقة ، فى حذر غريزى ، وما إن طالعها ، وعلى الرغ

من حفاظ ملامحه على جمودها ، اختلج قلبه بين ضلوعه ...

فما جاء فى سطورها كان يفوق أقصى أحلامه ...

ألف مرة ...

***

شعور جارف بالحب والحنان ، غمر مشاعر (صبرى) كلها ، وهو يحتض

ابنه الثانى ، الذى لم يتجاوز عمره يومًا واحدًا ...

لم يكن أول أبنائه ، ولكن شيئًا ما فى أعماقه ، جعله يشعر تجاهه بمشاع

عجيبة ، لم يشعر بمثلها ، حتى يوم ولادة ابنه الأوّل ، الذى دفعه فضول

الطفولى إلى التطلّع إلى وجه شقيقه الوليد ، فاحتضنه (صبرى) بذراع

الأخرى ، وهو يغمغم :

ـ هذا أخوك الأصغر (أدهم) يا (أحمد) .

مدَّ (أحمد) يده فى حذر ، يتحسَّس جسد شقيقه ، فابتسم (صبرى) فى حنان :

ـ فلتكونا صديقين ، وليس شقيقين فحسب ... ليحب كل منكما الآخر ، ويعمل على رعايته وحمايته دومًا .

ابتسمت أمهما فى حنان :

ـ مشاعرك دفاقة هذه المرة يا (صبرى) .

رفع عينيه إليها :

ـ هذا صحيح ... ولست أدرى حتى لماذا ؟!

غمغمت :

ـ يقولون : إن الأمومة غريزة ، ولكن الأبوة اكتساب ، وربما أيقظ مولد (أحمد) الأبوة فى أعماقك ، فتدفَّقت مع مولد (أدهم) .

ابتسم :

ـ ياله من تحليل نفسى جميل ... ماذا لو تنضمين إلى قسم التحليل النفسى لدينا ؟!

ضحكت :

ـ كم أتمنى .

ثم حملت ملامحها جدية مفاجئة :

ـ لعل مشاعرك هذه تشرح لك ، لماذا رفضوا مشروعك فى الجهاز .

تنهَّد ، واحتضن ولديه :

ـ ما زلت أؤمن به .

سألته فى خفوت :

ـ حتى لو طبقته على ولديك ؟!

اكتفى بهزّ كتفيه ، دون أن يجيب ، فتابعت :

ـ ربما يكون الهدف نبيلًا ، ولكننى لا أتخيَّل أن يفقد ولدىّ مثلًا متع
طفولتهما ، لكى يصبحا بطلين فى المستقبل .

حمل صوته الكثير من الجدية :

ـ لقد وضعت برنامجًا جديدًا ، يعتمد على أن يكتسب الأطفال ، ك
المهارات المطلوبة ، عبر مجموعة من الألعاب المرحة ، و ...

أمسكت كفه فى رفق ، وبدا عليها تأثر حزين :

ـ (صبرى) ... أرجوك ... لست أرغب فى التحدُّث عن هذا ... ليس الآ
على الأقل .

احتضن ولديه فى حنان جم ، وهو يغمغم :

ـ لا بأس .

عادت تبتسم فى حب وحنان، وهى تمد يديها إليه :

ـ أعطنى (أدهم) إذن ... أريد أن أحتضنه .

هتف (أحمد) الصغير :

ـ وماذا عنى .

ضحكت :

ـ سأحتضنكما معًا .

راقبهم (صبرى) فى هذا الوضع ، وهى توزِّع قبلاتها بين الصغيرين ، وابتسم فى حنان ...

ولكن السؤال ظل يتردَّد فى ذهنه فى إلحاح ...

« حتى لو طبقت هذا على ولديك ؟!... » ...

ومع تطلُّعه إلى زوجته وولديه ، راح يقاوم تلك الفكرة الملحة ...

بمنتهى القوة ...

***

أدار سكرتير السفارة المصرية فى النمسا محرِّك سيارته ، منطلقًا إلى منزله ، فى حى مجاور للسفارة ، وراحت أصابعه تدير مفتاح راديو السيارة ، محاولًا التقاط أية إذاعة عربية ، حتى سمع صوت كوكب الشرق (أم كلثوم) ، وهى تشدو بأغنيتها الجديدة ، فأسبل جفنيه قليلًا ، بما يسمح له بمتابعة الطريق ، وراح رأسه يتمايل مع النغمات ، على الرغم من خفوت الصوت وتشوّشه ...

كان معتادًا قطع هذا الطريق جيئة وذهابًا ، حتى صارت القيادة عبره ، شبه إجراء آلى روتينى ، و ...

وفجأة ، اقتربت منه سيارة رباعية الدفع ، على نحو غير طبيعى ، فمال جانبًا ، محاولًا تفاديها ، إلا أن قائدها مال أكثر نحوه ، وكأنه يدفعه خارج الطريق ، فشعر سكرتير السفارة بالتوتر ، ومس نفير السيارة فى رفق ، فى محاولة لتنبيه سائق السيارة رباعية الدفع ، والذى واصل خط سيره المائل ، حتى اضطر السكرتير إلى التوقف ، إلى جوار الرصيف ...

وهنا مال سائق السيارة الأخرى ، ليسد الطريق أمامه ، بزاوية لا تسمح له
بالتقدُّم أو التراجع ، وبخاصة عندما ظهرت سيارة رباعية ثانية ، توقفت خلف
سيارته ، وهبط منها رجلان ، يرتدى كل منهما حلة سوداء أنيقة ، واتجها نحو
سيارة السكرتير مباشرة ...

ولما لم يكن الرجل يحمل سلاحًا ، أو اعتاد حمل الأسلحة ، فقد ظلَّ جامدًا
فى مكانه ، وأغلق نافذة سيارته ، ولكن أحد الرجلين مال نحو النافذة ، مع
ابتسامة ودود ، ونقر على زجاجها ، وهو يقول بالألمانية ، مع لكنة واضحة :

ـ سيِّد (أمجد) ... أريد أن أتحدَّث معك بضع لحظات فحسب .

تطلَّع إليه (أمجد) ، فى توتر شديد ، وسأله ، دون أن ينزل زجاج السيارة :

ـ من أنت ؟!... وماذا تريد ؟!

أبرز الرجل فى هدوء بطاقة أمنية :

ـ الملازم (أندرسن) ، من الأمن العام .

أجابه فى عصبية :

ـ لدى حصانة ديبلوماسية .

أومأ (أندرسن) برأسه :

ـ نعلم هذا ... إنه أمر يتعلَّق بأمن سفارتكم .

العبارة بدت أشبه بكلمة سحرية ، جعلت (أمجد) يتردَّد لحظات ، ثم ينزل
جزءًا صغيرًا من النافذة ، فقط حتى يبدو الصوت أوضح :

ـ أى أمر ؟!

اعتدل الملازم (أندرسن) :

ـ معلوماتنا تقول : إنه لديكم جاسوس داخل سفارتكم ... جاسوس يعمل لحساب ... (إسرائيل) .

كانت هذه عبارة أكثر من سحرية ، جعلت سكرتير السفارة يفتح الباب ، ويغادر السيارة ، ليقف أمام ملازم الأمن العام النمساوى مباشرة ...

وكله آذان مصغية ...

بكل انتباه ...

***

« جاسوس داخل السفارة ؟!... » ...

نطقها (صبرى) فى دهشة مستنكرة ، وهو يجلس أمام رئيسه المباشر ، داخل مبنى المخابرات ، فمال رئيسه نحوه :

ـ ربما ضعفت نفس أحدهم ، أمام إغراء ما ... مال أو نساء ، أو حتى طموح ما .

هزَّ (صبرى) رأسه فى تفكير :

ـ لقد اختبرتهم بنفسى ، قبل أن يتسلموا عملهم .

تراجع رئيسه فى مقعده :

ـ أنت ترفض الفكرة إذن !!

عاد يهز رأسه :

ـ فى عملنا ، لا يمكننا رفض أو استبعاد أى احتمال ، مهما بدا شبه مستحيل ... فقط أحاول إيجاد رابط منطقى للأمر .

بدا رئيسه شديد الاهتمام :

ــ رجال الأمن العام فى (النمسا) ، يقولون : إنه ليس باستطاعتهم تحديد

هوية ذلك الجاسوس .

سأله فى تفكير :

ــ كيف بلغهم أمره إذن ؟!

أجابه مشيرًا بيده :

ــ من خلال رجل أوقعوا به ، حاول سرقة بيانات العملاء ، فى بنك

(سالز بورج) ، وأخبرهم ، خلال الاستجوابات ، أنه يعلم بوجود عميل للإسرائيليين

داخل السفارة المصرية .

سأل ، وتفكيره يزداد عمقًا :

ــ ألا توجد أية بيانات أخرى ... صورة ... وصف ... رقم هاتف ... أى شىء

مطَّ رئيسه شفتيه :

ــ المعلومة فقط ...

اعتدل فى اهتمام :

ــ وماذا لو أنه كاذب ؟!

التقط رئيسه ورقة من أمامه ، ودفعها نحوه :

ــ هذا الفاكس تم إرساله ، من سفارتنا فى (النمسا) إلى مكتبنا فى (الهند)

والرجل أعطاهم صورة منه ، كان من المفترض أن يضعها فى نقطة ميتة ، صباح

اليوم التالى ، لإلقاء القبض عليه(*).

(*) النقطة الميتة : مصطلح استخباراتى ، يعنى مكان خفى ، يدس فيه الجاسوس ما لديه من معلومات يحصل عليها آخر ، دون أن يلتقيا على نحو مباشر ، ويتلقى منها الجاسوس التعليمات مع أجر أو مكافأته، وأيضًا دون أن يلتقى بالطرف الآخر، ومن هنا سميت بالنقطة الميتة .

داعب (صبرى) ذقنه :

ـ هذا مثير للاهتمام .

غمغم رئيسه :

ـ وللقلق أيضًا .

تمتم :

ـ بالفعل .

واستغرق بضع لحظات ، فى تفكير عميق ، قبل أن يرفع رأسه إلى رئيسه :

ـ لهذا التقى ذلك الملازم بسكرتير السفارة ، فى طريق بعيد .

أومأ رئيسه برأسه :

ـ لم يشأ تنبيه الجاسوس .

تنهد :

ـ وهذا ما ينبغى أن نحرص عليه أيضًا .

تطلَّع إليه رئيسه لحظات ، ثم مال نحوه :

ـ هذه العملية تدخل ضمن دائرة اختصاصك .

تمتم ، دون أن يتوقَّف عن التفكير :

ـ هذا صحيح .

ثم اعتدل ، يسأل فى حزم :

ـ بأية صفة ، سأسافر إلى سفارتنا فى (فيينا) ؟!

أجابه على الفور ، وهو يناوله جواز سفر :

ـ بصفتك وزيرًا مفوَّضًا ، يتبع وزارة الخارجية .

التقط (صبرى) الجواز ، وفتحه ، وابتسم ، مع مرأى الصورة ، والاس
المدوَّن به :

ـ هذا رائع .

ابتسم رئيسه :

ـ ويناسب مهمتك ، يا سيد (مندور) .

تبادلا ابتسامة هادئة ، ولكن عقل (صبرى) لم يتوقَّف عن التفكير لحظة
لحظة واحدة ...

ففى أعماقه ، كان لديه شعور ، بأن هذا الأ مر لا يروق له ...
إطلاقًا ...

***

نفثت (راشيل) دخان سيجارتها ، فى عصبية واضحة ، قبل أن تمطَّ شفتي
فى ازدراء ، وبدا وكأنه قد صار جزءًا من شخصيتها :

ـ لن يقع فى هذا الفخ .

قال (جراهام) فى صرامة :

ـ لن يمكنه المقاومة .

هزَّ (دزرائيلى) رأسه ، وهو يقول ، فى شىء من العصبية :

ـ الفخ يبدو واضحًا ، بالنسبة لأى رجل مخابرات محترف ، وسيثير ه
فضوله واهتمامه بشدة ، وسيدفعه فضول المحترفين ، إلى محاولة الفهم
وهذا ما بنيت عليه خطتى .

أطفأت سيجارتها فى عصبية :

ـ سأشعر بشىء من الإحباط ، لو أنه وقع فى الفخ .

تطلَّع إليها (دزرائيلى) مستنكرًا :

ـ إحباط ؟!

هزَّت كتفيها :

ـ أسلوبه يوحى بأنه أبرع وأذكى من هذا كثيرًا .

تراجع فى مقعده :

ـ ذكاؤه هو الذى سيجذبه إلى هنا .

أضاف (جراهام) فى اهتمام :

ـ العملية من طراز عملياته ، ووفقًا لقواعد العمل الاستخباراتى ، سيكون المرشَّح رقم واحد لتوليها .

أشار (دزرائيلى) بيده :

ـ وسيرسلونه حتمًا إلى هنا ، منتحلًا شخصية ديبلوماسية ؛ لتحرى الأمر وكشف الجاسوس .

تمتمت :

ـ ولن يجد شيئًا .

ابتسم (جراهام) :

ـ المهم أن يأتى .

أكمل (دزرائيلى) ، فى مقت واضح :

ـ وأن نعرف هويته .

أشعلت سيجارة أخـرى ، راحت تدخنها فى تفكير عميق ، قبـل أن تشير بيدها :

– وماذا لو أنهم أرسلوا شخصًا آخر ؟!

انعقد حاجبا (جراهام) فى شدة :

– سيكون هذا من سوء طالعه .

غمغم بها ، فى مقت واضح ، وهو يسحب مشط مسدسه ويفلته ...

لقد كان يستعد لمواجهة ، بحث عنها طويلًا ...

مواجهة قاتلة ...

ودموية ...

إلى حد مخيف .

***



الفصل الثالث

تطلَّع (حسام) ، عبر نافذة ذلك المنزل الآمن ، فى قلب (فيينا) ، قبل أن يلتفت إلى (صبرى) :

ـ ما زلت أتعجَّب ، لماذا أتينا إلى هنا ؟!

التفت إليه (صبرى) ، بابتسامة هادئة ، دون أن يجيب ، فتابع قالبًا كفيه فى حيرة :

ـ المفترض هنا كوننا ديبلوماسيين ، أرسلتهما وزارة الخارجية ، لمراجعة أعمال سفارتنا هنا .

أكمل (صبرى) فى هدوء :

ـ ولكننا لم نذهب إلى السفارة .

أومأ (حسام) برأسه :

ـ وفى اللحظة الأخيرة !!

أشار إليه (صبرى) :

ـ اجلس يا (حسام) .

جلس (حسام) على المقعد أمامه ، فتطلَّع إليه لحظة :

ـ هل تعلم ما أصعب ما يواجهنا ، عندما نخوض لعبة ذكاء ، أمام ضابط مخابرات محترف ؟!

أجابه على الفور :

ـ كشف هويته .

وافقه (صبرى) بإيماءة من رأسه :

ـ صحيح ... القسم الفنى يمكنه دراسة أسلوبه ، وتحليل طرق تفكيره ،
وكشف نسق تخطيطه ، عندما يقود عملية ما .

أشار (حسام) بيده :

ـ لهذا تحاول تجديد أسلوب عملياتك ، فى كل مرة .

ابتسم :

ـ ومهما فعلت ، سيظل هناك نمط ما ، يحكم اللاوعى لدى ، ويمكن لخبراء
أى جهاز معاد التوصل إليه ، إلى حد كبير .

هزَّ (حسام) كتفيه :

ـ كلهم محترفون .

مال (صبرى) نحوه :

ـ ما الوسيلة الوحيدة، لكى تكتمل معلوماتك ، عن ضابط عمليات الخصم ،
وتصل إلى التحليل النفسى الكامل له ؟!

صمت (حسام) لحظات ، ثم انعقد حاجباه ، وهو يقول فى بطء :

ـ أن نكشف هويته .

اعتدل (صبرى) فى حسم :

ـ بالضبط .

ازداد انعقاد حاجبى (حسام) ، وبدا أنه قد بدأ فى استيعاب الفكرة ، فتابع
(صبرى) مشيرًا بسبابته :

ـ فى الطائرة ، فى طريقنا إلى هنا ، قفزت الفكرة إلى ذهنى ... العملية
بدت مثالية إلى حد مدهش ، بحيث تتوافق مع نمط العمليات ، التى يتم
إسنادها إلىَّ ، وكأن أحدهم قد أعدَّها بدقة ، على نحو يدفعهم إلى إرسالى إلى
هنا ... وهذا حتمًا لسبب واحد لا غير .

أجابه (حسام) فى حماس :

ـ كشف هويتك .

أشار إليه :

ـ بالضبط ... ولهذا لم نذهب إلى السفارة ، التى يراقبونها الآن حتمًا ،
ويصورون كل من يصل إليها .

غمغم (حسام) :

ـ ولعبة موظفى وزارة الخارجية هذه ، سيتوقعونها حتمًا .

رفع (صبرى) حاجبيه ، وخفضهما :

ـ لأنهم محترفون .

التقط (حسام) نفسًا عميقًا :

ـ وماذا تنوى أن تفعل ؟!

أشار (صبرى) بكفه :

ـ لقد أرسلت رسالة مشفَّرة للإدارة فى (القاهرة) ، أخبرهم فيها بشكوكى .

بدا شديد الجدية :

ـ وهل درسها القسم الفنى ؟!

أومأ برأسه :

ـ وأيدوا ما دار فى ذهنى .

استغرق (حسام) فى التفكير لحظات .

ما زلت أسأل : ماذا تنوى أن تفعل ؟!

تراجع فى مقعده :

ـ سألتقط بداية الخيط ... الفاكس المسروق .

ولأنه أيضًا محترف ، استوعب (حسام) الأمر على الفور ...

استوعبه تمامًا ...

***

احتقن وجـه (حاييم دزرائيلى) فى شدة ، وهو يستمع عبر الهاتف ، على نحو أثار توتر (راشيل) ، حتى أنها لم تنتظـر انتهـاء المحادثة ، فسألتـه بكل انفعالاتها :

ـ ماذا هناك ؟!

اعتـدل (جراهـام) فى قلق ، وهو يتطلّـع إليـه ، حتى أنهى (حاييم) المحادثة ، ورفع إليهما عينين محمرتين :

ـ لقد وصل فاكس عاجل ، إلى مكتب المدير مباشرة .

غمغمت (راشيل) فى تساؤل :

ـ فاكس ؟!

أومأ (حاييم) برأسه ، واستغرق لحظات ، حاول خلالها ابتلاع غصة ، سدّت حلقه ، قبل أن يجيب ، فى صوت متحشرج مبحوح :

ـ فاكس من (الباشا) .

انتفض جسد (راشيل) كله فى عنف ، واتسعت عيناها عن آخرهما :

ـ (الباشا) ؟!

وهتف (جراهام) :

ـ وعلى فاكس المدير مباشرة .

زفر (حاييم) فى عصبية :

ـ فاكس يقول : إنه قد كشف وسيلة تجسسنا على فاكس السفارة ، وأن هذا لن يمكن تكراره مرة ثانية .

سقط (جراهام) على مقعده مصعوقًا :

ـ كشفه ؟!

تابع (حاييم) ، وهو يكاد يبكى :

ـ وأبلغ سلطات (فيينا) عن تورط (إبسن) ، رجلنا هناك ، وعن جاسوسنا ، فى جهاز الاتصالات النمساوى ... ولقد تم تزويد كل هواتف السفارة بنظم تأمين خاصة ، تضاعف من حماية اتصالاتها .

انسالت الدموع من عينى (راشيل) بالفعل ، على الرغم من ملامحها الجامدة الصارمة ، وبدا صوتها محتقنًا كوجهها :

ـ هل تعلمان ما يعنيه هذا ... إنه لم يكشف أمر الفاكس فحسب ، بل كشف الخدعة كلها أيضًا .

بدا صوت (جراهام) مفعمًا بالمقت والبغض والكراهية :

ـ ويبلغ رؤسائنا بفشلنا أيضًا .

هزَّ (حاييم) رأسه فى مرارة :

ـ ولم يأت أحد إلى السفارة ... وكل آلات التصوير حولها ، لم تحصل على صورة واحدة .

مسحت (راشيل) دموعها فى صرامة :

ـ لقد فشلنا ... لم يعد هناك مفر من الاعتراف بهذا .

غمغم (حاييم) :

ـ ولم نكشف هوية (الباشا) .

ضرب (جراهام) المائدة ، أمامه بقبضته :

ـ لم نفشل .

التفت إليه الاثنان ، فى دهشة مستنكرة ، جعلته يتابع ، فى حزم وصرام

ـ لقد خسرنا جولة ، وهذا لا يعنى الفشل ... الحرب ستظل مستمرة .

ارتفع حاجبا (حاييم) فى استنكار :

ـ الحرب ؟!

عاد (جراهام) يضرب المائدة بقبضته ، وهو ينهض فى حدة :

ـ نعم ... هى حرب ... حرب بينى وبين ذلك ، الذى تلقبونه بذلك اللق المستفز ... (الباشا) ... انسحبا منها لو أردتما ، أما أنا فسأظل أخوض تلك الحرب ، حتى أظفر بذلك الخصم العنيد ، الذى يتصوَّر أنه الأذكى والأبرع .

قالت (راشيل) فى حدة :

ـ (دافيد) ... فى عملنا ، لا مجال للمشاعر أو العواطف الشخصية ، ولا حتى للكراهية وحب الانتقام ... هذا يخالف كل القواعد .

شدَّ قامته فى اعتداد :

ـ ولهذا عرضت عليكما الانسحاب ... و رسميًا أو غير رسمى ، سأظل أطارد ذلك الرجل ، وعندما أصل إليه ...

بتر عبارته لحظة ، ليلتقط أنفاسه ، بعد هذا الانفعال الجارف ، والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف ، بكل مقت الدنيا :

ـ سأقتله .

تبادل (حاييم) و (راشيل) نظرة صامتة قلقة ، دون أن يتبادلا حرفًا ... حرفًا واحدًا ...

***

« (صبرى) » ...

نطقت زوجته الاسم فى توتر ، جعله يلتفت إليها متسائلًا :

ـ ماذا هناك يا عزيزتى ؟!

بدت أكثر توترًا ، وهى تتجه إليه ، عبر حديقة منزلهما :

ـ ماذا تفعل مع الصغيرين ؟!

صمت لحظة ، قبل أن يبتسم :

ـ أداعبهما وألاعبهما ، كما يفعل أى أب .

غمغمت فى عصبية :

ـ بهذه الوسيلة ؟!

داعب شعر صغيره (أدهم) ، وهو يتطلّع إليهما بوجه هادئ :

ـ أية وسيلة ؟!

ازدادت عصبيتها قليلًا :

ـ (صبرى) ... هل نسيت أننى قد درست أسس التربية فى الجامعة ؟!...

ابتسم :

ـ أعلم هذا بالطبع .

هزّت رأسها فى شدة :

ـ ما تفعله ليس تربية ... إنه تدريب .

لم يبد عليه الانفعال :

ـ تدريب ؟!

بدت محتدة :

ـ نعم يا (صبرى) ... تدريب ... إنك لم تتخل عن نظريتك وفكرك أ
ما زلت تحاول إنتاج رجل المخابرات المثالى .

التقط نفسًا عميقًا :

ـ أعترف بهذا .

أشارت إلى صغيرها :

ـ وتحاول تطبيق هذا على ولديك .

تطلَّع إلى الصغيرين لحظة :

ـ إنهما سعيدان ويلعبان ، ولم يفقدا شيئًا من طفولتهما ، كما ك
تخشين .

هتفت :

ـ ولكنك لن تتوقَّف .

نهض يجلس على المقعد المجاور لها :

ـ ما الذى يقلقك ؟!

بكت فى أسى :

ـ لو أحرزت نجاحًا مع أحدهما ، ستواصل تطبيق برنامجك معه ، وسيعن
هذا أن يفقد طفولته تمامًا ، وأن يتحوَّل إلى آلة ، يتم إعدادها ؛ للقيام بوظيف
واحدة .

احتضنها فى حنان :

ـ الأمر ليس كما تتصوَّرينه ... كل ما أسعى إليه ، هو أن ينموا قويين ، قادرين على حماية ورعاية نفسيهما ، ورعايتك أيضًا .

دفنت رأسها فى صدره ، وبلَّلته بدموعها :

ـ أنت ترعانى .

تحسَّس شعرها فى حنان :

ـ وماذا لو لم أكن هناك ؟!

احتضنته فى قوة :

ـ أطال الله فى عمرك .

ربَّت عليها :

ـ لا أحد يدرى ، ما الذى يخبئه له القدر .

وشرد ببصره لحظات ، ثم خفض عينيه إلى الصغيرين ، اللذين انشغلا باللعب ، وكرَّر فى خفوت :

ـ لا أحد .

كانت تعلم أنه على حق ، وعلى الرغم من هذا ، فقد انهمرت الدموع من عينيها أكثر ...

وأكثر ...

وأكثر ...

***

تطلَّع (سيرجى كوربوف) لحظات ، إلى لوحة كلاسيكية ، معلقة على جدار منزل أحد رجال الحزب الشيوعى ، قبل أن يلتفت إلى الرجل فى صرامة :

ـ كم يبلغ ثمن هذه اللوحة أيها الرفيق ؟!

غمغم الرجل ، وهو يتطلَّع إلى المدافع الآلية ، المصوَّبة إليه :

ـ ليست باهظة الثمن أيها الرفيق النقيب .

التفت إليه (سيرجى) ، بملامحه الباردة القاسية ، وتطلَّع إليه بعينيه الضيقتين الصارمتين :

ـ هل تعنى أننى لو أحضرت خبيرًا فى التحف واللوحات الفنية ، فسيكون هذا رأيه ؟!

توتر الرجل فى شدة :

ـ لماذا تشغلك لوحة على جدار ، أيها الرفيق النقيب ؟!

التفت إليه (سيرجى) بجسده كله :

ـ لأن دخلك لا يكفى لاقتناء مثلها أيها الرفيق ... إنها إحدى لوحات (فيودور ستيفانوفيتش روكوتوف)(*)، وهى تساوى ثروة ، تفوق راتبك فى عشرين عامًا .

ازدرد الرجل لعابه فى صعوبة :

ـ إنها ليست أصلية ، أيها الرفيق النقيب .

(*) (فيودور ستيفانوفيتش روكوتوف) : (١٧٣٦-١٨٠٨م) : أحد أبرز الفنانين السوفيت ، اشتهر بروعة لوحاته ، فى فن البروتريه ، درس الفن فى أكاديمية (سان بطرسبرج) ، وجزء كبير من تاريخه ما زال مجهولًا ، ولوحاته تباع بملايين ، حتى يومنا هذا .

غمغم (سيرجى) :

ـ هذا ما تقوله .

بدأ التوتر يتصاعد ، فى أعماق الرجل ، وبرز فى صوته وحركاته :

ـ يمكنك الرجوع إلى (يورى تشيكوف) ... لقد ابتعناها منه .

تطلَّع (سيرجى) مرة أخرى إلى اللوحة :

ـ سنرى .

« هذا صحيح ... لقد ابتاعها منى »

نطق (تشيكوف) العبارة فى صوت مرتجف ، وهو يتطلَّع إلى وجه (سيرجى) البارد كالثلج ، وتابع :

ـ كثيرون من رجال الحزب المحترمين ، اشتروا لوحات مقلّدة منى .

غمغم (سيرجى) :

ـ نزعة رأسمالية ممقوتة .

ازدرد (تشيكوف) لعابه فى صعوبة :

ـ يزينون بها منازلهم ، أيها الرفيق النقيب .

قلب (سيرجى) شفتيه :

ـ مخطئون .

ثم مال نحو الرجل فى صرامة :

ـ ولكن لماذا تبدو وكأنها اللوحة الأصلية ؟!

ارتجف كيان (تشيكوف) كله :

ـ لأننى بارع للغاية ، أيها الرفيق النقيب .

اعتدل (سيرجى) ، وظلت ملامحه جامدة باردة ، فتابع الرجل ، وهو يشير بكفيه :

ـ اللوحة الأصلية ما زالت على جدار متحف الفن ، فى (موسكو) ، فى شارع ...

قاطعه (سيرجى) بإشارة صارمة من يده :

ـ أعلم أين هو ...

ثم عاد يميل نحوه :

ـ ولقد زرته ، قبل أن آتى إليك .

تراجع (تشيكوف) فى خوف :

ـ إذن فقد تأكَّدت .

اعتدل (سيرجى) فى صرامة قاسية :

ـ وامتلأ رأسى بالشك .

غمغم (تشيكوف) مذعورًا :

ـ الشك ؟!... ولكن يمكن الرجوع إلى خبراء المعرض ، و ...

قاطعه مرة أخرى ، بإشارة أكثر صرامة :

ـ فعلت هذا أيضًا .

ارتسم مزيج من الدهشة والذعر ، على ملامح (تشيكوف) ، وهو يتراجع بحركة غريزية :

ـ ماذا إذن ؟!

أخافه أكثر صوت (سيرجى) ، شديد القسوة والصرامة :

ـ ماذا تزيف أيضًا يا (يورى) ؟!

ارتجف جسد (تشيكوف) كله :

ـ لا شىء ... اللوحات فقط .

حاول أن يبصر عينى (سيرجى) الضيقتين ، وهو يقول :

ـ وماذا عن الوثائق والأختام ؟!

غمغم فى ذعر :

ـ وثائق وأختام ؟! ... أقسم لك ...

مرة ثالثة ، استوقفه (سيرجى) بإشارة صارمة :

ـ لا أؤمن بالقسم .

وعاد يميل نحوه :

ـ أؤمن فقط ، بجهاز كشف الكذب ونتائجه .

وهنا انهار (تشيكوف) ...

تمامًا ...

***

زوجتك على حق يا (صبرى) ...

نطقها (حسام) ، وهو يجلس مع (صبرى) ، فى حديقة المنزل الصغيرة ، فرفع إليه هذا الأخير عينيه :

ـ أنت أيضًا ؟!

أومأ برأسه :

ـ نعم يا (صبرى) ... إنك لا تلاعب طفليك ، بل تخضعهما لبرنامجك .

صمت (صبرى) لحظات ، ثم نظر إلى باب المنزل ؛ ليتأكَّد من أن زوجه
لن تسمعهما ، قبل أن يميل نحوه :

ـ أحدهما فقط .

تلفَّت (حسام) حوله بدوره ، وهو يهمس :

ـ أيهما ؟!

أجابه قبل أن يعتدل :

ـ (أدهم) .

بدت الدهشة على (حسام) :

ـ إنه الأصغر .

هزَّ (صبرى) رأسه :

ـ ليست مسألة عمر ، بل استعداد ... لقد أخضعت كليهما لأسلوب تحديد القدرات الصينى ، وأدركت منذ عام ، أن (أحمد) فى الخامسة ولكنه يمتلئ بالفضول ، حول كل ما حوله ... قد يمضى ساعة ، فى مراقبة الفراشات، والسؤال عن سبب اختلاف ألوان الأجنحة، أما (أدهم) ، فهو أكثر شغفًا ، بما أدربه عليه .

وألقى نظرة على ولديه ، قبل أن يعود ببصره إلى (حسام) :

ـ صدقنى ... إنه موهوب .

غمغم (حسام) فى حيرة :

ـ إنه فى الخامسة !!

أشار بسبَّابته :

ـ ولكنه سريع الاستيعاب ، على نحو مبهر .

انخفض صوت (حسام) ، وحمل الكثير من الدهشة :

ـ طفل فى الخامسة ؟!

عاد يشير بسبَّابته :

ـ وهذا جزء من موهبته ... عقله يفوق عمره بكثير .

قال (حسام) فى إصرار :

ـ ما زلنا نتحدَّث عن طفل فى الخامسة .

أشار (صبرى) إلى (أدهم) :

ـ هذا الطفل ، ذو السنوات الخمس ، يستطيع فهم الإنجليزية والفرنسية ، وبعض الكلمات الألمانية .

غمغم (حسام) مستنكرًا :

ـ مستحيل !

تطلَّع إليه (صبرى) بابتسامة ، فتابع فى توتر :

ـ إنه فى الخامسة فحسب !!

صمت (صبرى) لحظات ، ثم عاد يميل نحوه :

ـ هل تحمل مسدسك ؟!

تمتم فى تردُّد :

ـ دومًا .

فرد (صبرى) كفه أمامه :

ـ أيمكنك أن تعيرنى إياه ؟!

ابتسم (حسام) :

ـ أنت مدهش ... ينبغى أن تتولّى تدريب الضباط الجدد .

بدا (صبرى) هادئًا سعيدًا ، وهو يقول :

ـ أضف إلى هذا ، أن (أدهـم) يتمتع أيضًا بموهبة فريدة ، لم اتوق

وجودها ، فى مثل عمره :

ـ حمل صوت (حسام) كل اهتمامه :

ـ أية موهبة ؟!

التقط (صبرى) ثمرة فاكهة صغيرة ، من طبق يتوسطهما ، وهتف :

ـ (أدهم) .

ثم استدار وألقى الثمرة بكل قوته ...

وعلى الرغم من أن الصغير كان منشغلًا باللعب مع شقيقه ، إلا أنه لم يكد يسمع النداء ، حتى التفت إلى والده ، ورأى تلك الثمرة تندفع نحـوه ، فانتقل من الجلوس إلى قفزة مباغتة ، والتقط تلك الثمرة فى خفة ...

واتسعت عينا (حسام) ، فى دهشة كبيرة هذه المرة ...

ففى عمره كله ، لم ير يومًا طفلًا فى الخامسة ، يمتلك هذا القدر من سرعة الاستجابة ...

أبدًا .

***

الفصل الرابــع

شعر (دافيد جراهام) بتوتر شديد ، وهو يقف أمام مدير (الموساد) ، الذى راجع ملفًا أمامه ، قبل أن يرفع إليه عينين غاضبتين :

ـ ما دورك هنا بالضبط يا (جراهام) ؟!

التقى حاجبا (جراهام) :

ـ أنا ضابط مخابرات ، أؤدى واجبى ، و ...

قاطعه فى صرامة :

ـ خطأ .

تراجع (جراهام) بحركة غريزية :

ـ أليس هذا ما نقوم به هنا ، من أجل (إسرائيل) ؟!

ضرب مديره سطح مكتبه بقبضته فى غضب :

ـ سل نفسك ... التقارير التى أمامى هنا ، تقول : إنك منشغل بأمور شخصية ، تحاول تجنيد إمكانيات الجهاز من أجلها .

تسللت العصبية إلى صوت ولهجة (جراهام) :

ـ ليست أمورًا شخصية .

ضرب مديره سطح مكتبه بقبضته مرة أخرى :

ـ هل تم تكليفك بالسعى لكشف هوية ذلك المصرى ، الملقب بـ (الباشا) ؟!

غمغم (جراهام) ، ونبرة العصبية فى صوته تتصاعد :

ـ كلا ... ولكن لو كشفنا هويته ...

قاطعه فى صرامة :

ـ كفى .

حمل صوته كل الدهشة :

ـ لم أقل شيئًا بعد !!

سحب مديره ورقة ، ذيَّلها بتوقيعه ، وهو يقول فى خشونة :

ـ لم تعد هناك جدوى من الكلام .

ومد يده إليه بالورقة :

ـ فلقد تم نقلك كملحق عسكرى ، فى سفارتنا فى (بولندا) .

التقط (جراهام) الورقة ، على نحو غريزى ، وهو يحدِّق فى وجه مديره :

ـ (بولندا) ؟!

خفض المدير عينيه إلى أوراقه ، وكأنه يعلن نهاية المقابلة :

ـ سيفيدك الابتعاد عن هنا ، لعام أو عامين .

احتقن وجه (جراهام) ، وشعر بغصة فى حلقه ، جعلت صوته يتحشرج ، وهو يتمتم :

ـ أوامرك يا سيِّدى .

اتجه نحو الباب ، وهو يشعر أن ساقيه تعجزان عن حمله ، وما إن وصل إليه ، حتى سمع مديره من خلفه :

ـ (جراهام) .

التفت إليه فى صعوبة :

ـ سيِّدى .

حمل صوت المدير صرامة قاسية :

ـ تزوَّج يا (جراهام) .

غمغم فى دهشة :

ـ ماذا ؟!

كرَّر مديره ، بنفس اللهجة :

ـ تزوَّج ... ربما يشغلك الزواج عن إهدار وقتك وطاقتك ، فى أمور خارج مهام عملك .

التقط نفسًا عميقًا :

ـ أشكرك على النصيحة سيِّدى .

وعندما غادر مكتب المدير ، كانت كراهية (الباشا) فى أعماقه قد تضاعفت ... ألف مرة ...

***

« سيفقد الصغيران طفولتهما ... » ...

دارت الفكرة فى رأس زوجة (صبرى) ، وهى تقوم بتنظيف ماكينة الحياكة ، على مسافة متر واحد من ولديها ، اللذين يستذكران دروسهما ، حول مائدة مجاورة ...

كانت تدرك ، بحكم دراستها التربوية ، أن (صبرى) لن يتخلى عن برنامجه أبدًا ....

حتى الألعاب ، التى يشارك فيها ولديه ، كانت جزءًا من البرنامج ... وهذا لا يشعرها بالارتياح ...

ربما لا يشعران بهذا الآن ، ولكن (صبرى) لن يتوقَّف ...
سيواصل برنامجه ، حتى النهاية ...
وسيجعل من ولديه دليلًا حيًا ، على صحة برنامجه وفائدته ...
وهى لا تريد لأولادها هذا المصير ...
لا تريده أبدًا ...
على الرغـم من محاولتها التماسـك ، والاحتفـاظ بالفكرة لنفسها ، انسالت الدمـوع من عينيها فى صمت ، وصنعت غمامة أمـام عينيها ، وهى تمد يدها ؛ لالتقاط زجاجة الكحول ، التى تستخدمها فى تنظيف الماكينة ...
وبدلًا من أن تمسك بها ، ارتطمت يدها بالزجاجة ، ورأتها تسقط من فوق منضدتها نحو الأرض ، وأصابها الذعر ...
ولجـزء مـن الثانية ، رأت فى خيالهـا الزجاجـة ترتطـم بالأرض ، وتتهشَّم ، وشظايا الزجاج مع الكحول تتطاير ، وتصيب ولديها ...
ولكن فجأة ، رأت ما أذهلها ...
(أدهم) الصغير ، الذى يوشك على بلوغ عامه السادس ، وثب من مكانه ، والتقط الزجاجة ، قبل سنتيمتر واحد من ارتطامها بالأرض ، ونهض فى هدوء ، وأعادها إلى المنضدة :
ــ ها هى ذى يا أمى .
حدَّقت فيه غير مصدقة :
ــ كيف فعلت هذا ؟!
بدت لهجته أكثر نضجًا ، من سنوات عمره القليلة ، وهو يجيب :

ـ رأيتها تسقط ، وشاهدت الذعر على وجهك ، فأسرعت ألتقطها ، قبل أن ترتطم بالأرض .

لم تصدِّق البساطة التى نطق بها ، فكرَّرت سؤالها :.

ـ كيف فعلتها ؟!... كنت على مسافة متر منى ، عندما سقطت الزجاجة عن المنضدة .

التفت يقيس المسافة ، بينه وبين أمه ، والمائدة التى كان يجلس إليها ، ثم عاد ببصره إلى أمه ، واستعادت لهجته ما يناسب عمره :

ـ لم أنتبه .

حمل صوت (أحمد) نفس دهشة أمه :

ـ لقد فوجئت به ، يقفز نحوك يا أمى ، ولقد بدا لى ، وكأنه قد اختفى من جوارى ، وظهر عندك .

كان (أدهم) ينقل بصره بينهما ، فى شىء من الحيرة ، عندما وصل (صبرى) ؛ الذى شعر بالقلق للمشهد :

ـ ماذا هناك ؟!

كان (أحمد) وحده من تكلم :

ـ أمى أسقطت عفوًا زجاجة كحول ، و (أدهم) التقطها ، قبل أن ترتطم الأرض .

رفعت إليه زوجته عينيها ؛ لتكمل فى صوت مبهور :

ـ وفى سرعة مذهلة .

نقل (صبرى) بصره بينها ، وبين (أدهم) ، ثم ابتسم :

ـ أحسنت يا (أدهم) .

التقطت نفسًا عميقًا ، فى محاولة لتهدئة نفسها ، قبل أن تغمغم :

ـ (صبرى) ... أريدك فى حجرة مكتبك .

لحق بها إلى حجرة المكتب ، وما إن أغلق الباب خلفهما ، حتى التفتت إليه فى صوت خافت ، ولكنه مفعم بالتوتر والانفعال :

ـ ماذا فعلت بـ (أدهم) ؟!

تطلَّع إليها لحظة فى صمت ، ثم اتجه إلى أقرب مقعد إليه ، وجلس متطلعًا إليها :

ـ (أدهم) موهوب .

لم ترق لها إجابته ، فكرَّرت فى مزيد من التوتر والانفعال :

ـ ماذا فعلت به ؟!

أجاب فى سرعة :

ـ لا شىء .

ثم حاول تحاشى النظر إلى عينيها مباشرة ، وهو يستدرك :

ـ لاحظت أن سرعة استجابته أعلى من كل المعدَّلات ، فسعيت لتنمية هذا فيه .

غمغمت فى عصبية :

ـ إلى الحد الذى رأيته ؟!

قال فى خفوت :

ـ أخبرتك أنه موهوب .

صمتت لحظات ، ثم تساءلت فى توتر :

ـ وهل يمكن للإنسان العادى ، تنمية سرعة استجابته ، إلى هذه الدرجة .

التقط نفسًا بدوره :

ـ كل شىء فى البشر يمكن تنميته ، بالتدريب المناسب ، والمستمر .

جلست على مقعد مجاور :

ـ وماذا عن (أحمد) ؟!

أجاب فى بطء :

ـ إنه موهوب أيضًا .

ثم رفع سبابته ، مضيفًا :

ـ ولكن فى مجال آخر .

بح صوتها ، من فرط الانفعال ، وهى تسأله :

ـ أى مجال ؟!

تطلّع إلى عينيها مباشرة :

ـ العلوم ... إنه شغوف بكل ما هو علمى أو طبى ... عندما اصطحبت ليهما ، فى إجازة منتصف العام ، إلى معرض (القاهرة) الدولى للكتاب ، تقى (أدهم) كتاب (فن الحرب) ، فى حين اختار (أحمد) كتابًا عن تطوُّر كائنات .

غمغمت ذاهلة :

ـ فن الحرب ، وتطوُّر الكائنات ؟!... فى هذا العمر .

ثم اغرورقت عيناها بالدموع :

ـ ماذا فعلت بولدىَّ ؟!

دفع مقعده بالقرب منها ، وأحاط كتفيها بذراعه فى حنان :

ـ ما يفعله أى أب محب ... أسعى لتنمية قدراتهما ، وتوفير المناخ الملائم لها .

بكت على صدره :

ـ من خلال برنامجك ؟!

احتضنها فى حنان :

ـ صدقينى يا حبيبتى ... لم أحاول إجبار أيهما على شيء ... فقط وضعت أمامها كل الخيارات ، دون أن يدركا ، فاختار كل منهما طريقه .

غمغمت باكية :

ـ هذا ما تتصوَّره .

احتضنها فى حنان أكثر :

ـ هناك وجهان دومًا لكل عملة .

تمتمت :

ما تراه منهما فحسب .

ربّتت عليها فى رفق :

ـ هل سألت نفسك ، لماذا يهبنى الله سبحانه وتعالى ، من دون الخلق أجمعين ، ابنًا يمتلك نفس الموهبة ، التى تجعل من برنامجى مشروعًا ناجحًا ؟!... ولماذا عشق (أدهم) هذا ، وتفوَّق فيه ، على نحو مذهل ، شاهدت بنفسك نتائجه ؟!

صمتت لحظة ، ثم رفعت وجهها عن صدره :

ـ لم أر الصورة من هذه الزاوية قط !!

كانت عيناها ما تزال مغرورقتين بالدموع ، فمد أنامله يمسحهما فى حنان دافق ، مغمغمًا :

ـ إنهما ولدىَّ ، ولن أسىء إليهما أبدًا ، وأنت تعلمين هذا .

غمغمت ، من وسط دموعها :

ـ أعلم .

احتواها بين ذراعيه مرة أخرى ، وراح يربِّت عليها مهدئًا ، فاسترخت على صدره ، ولكن دموعها ظلت تنهمر ...

بلا انقطاع ...

***

لم يشعر دون (كورليون) ، زعيم (المافيا) الإيطالية ، بسعادة حقيقية ، وزعماء العائلات الأخرى يهنئونه ، بمولد ابنته الوحيدة (كارولينا) ...

فكإيطالى تقليدى ، وزعيم لأقوى منظمات الجريمة ، فى (إيطاليا) كان يأمل فى أن تكون ذريته كلها من الذكور ...

ولم يسعده أبدًا أن ينجب ابنة ...

وبعد رحيل المهنئين ، الذين أهدوا الصغيرة عدة رزم من النقود ، تتجاوز المليون دولار ، جلس دون (كورليون) مع محاميه (ألبرتو) ، الذى تطلَّع إليه لحظات ، ثم مال نحوه :

ـ لا تبدو سعيدًا بالمولودة الجديدة ، يا دون (كورليون) .

مطَّ شفتيه ، ولوَّح بيده :

ـ لست حزينًا أيضًا ، ولكننى كنت آمل بصبى .

حاول (ألبرتو) أن يبتسم :

ـ لديك ثلاثة ذكور بالفعل .

عاد يمطُّ شفتيه :

ـ ولماذا لا يكونون أربعة ؟!

هزَّ (ألبرتو) كتفيه :

ـ هكذا أراد الرب .

ثم استدرك فى لهجة ناعمة :

ـ ومن يدرى ؟!... ربما صارت أفضل من أشقائها .

غمغم دون (كورليون) فى استنكار :

ـ فتاة ؟!

عاد يهزُّ كتفيه :

ـ الفتيات فى هذا العصر يختلفن .

اعتدل دون (كورليون) فى صرامة :

ـ ويبقين فتيات .

ثم أشعل سيجارًا فخمًا ، قبل أن يستطرد :

ـ عائلتنا تسيطـر ، على كل العـائلات الأخرى ، ليس فقط لأنها أكثر ثراءً، ولكن لأننا أكثر قوة ونفوذًا ... إننا ندفع الملايين كل عام ؛ لشراء رجال الشرطة، والقضاة ، وأعضاء البرلمان ، وبعض رجال مؤسسة الرياسة ... حتى (الفاتيكان)، لنا داخله رجال(*).

(*) الفاتيكان : مدينة هى أصغر دولة فى العالم ، من حيث المساحة، لها شكل اهليجى ، فى قلب (روما)، عدد سكانها ٩٤٠ نسمة فقط ، وهى مركز القيادة الروحية ، للكنيسة الكاثوليكية .

تمتم (ألبرتو) :

ـ موظف واحد .

أجابه فى خشونة :

ـ وهو يكفينا .

والتقط نفسًا من سيجاره الفاخر ، وأطلق دخانه فى الهواء ، ثم تابع :

ـ الأهم ، أننا الأكثر قسوة ، فى التعامل مع كل من يحاول الوقوف فى طريقنا ، والأعنف تنكيلًا بالأعداء ... ولهذا يحترمنا الجميع ويخشوننا .

تردَّد (ألبرتو) لحظة :

ـ وما صلة هذا بالمولودة الجديدة ؟!

تطلَّع إليه دون (كورليون) :

ـ أية فتاة تلك ، التى يمكنها أن تتعامل مع باقى العائلات ، بالقوة والقسوة اللازمين ، ويمكنها الحفاظ على احترامهم وتقديرهم ، فى الوقت ذاته ؟!

مرة أخرى ، حاول (ألبرتو) أن يبتسم :

ـ فتاة تمت تربيتها على هذا .

قلب دون (كورليون) كفيه :

ـ حتى لو فعلت ... أنت تعرف طبيعة الإيطاليين جيدًا ... لن يقبلوا أبدًا امرأة ، على رأس العائلات ، مهما بلغت من القوة والبأس ... هذا موروث قديم ، يكمن فى جيناتهم ، ولا يمكنهم التخلِّى عنه أبدًا .

تمتم (ألبرتو) :

ـ ربما .

ثم لوَّح بيده :

ـ ولكن لماذا ننشغل بهذا الآن ... (كارولينا) أصغر من أشقائها الثلاثة ، وكلهم تمت تنشئتهم ؛ ليكونوا فى مقعد الزعامة ، فأية فرصة ، فى أن تجلس هى يومًا ، على مقعد زعامة العائلات ؟!

صمت دون (كورليون) لحظات ، دخَّن خلالها سيجاره ، قبل أن يلتفت إلى (ألبرتو) فى بطء :

ـ تكاد تقترب من الصفر .

ابتسم (ألبرتو) ولوَّح بيده :

ـ أرأيت يا دون ... الأمر لا يستحق حتى مجرَّد التفكير ، فما بالك بالقلق !! ـ المصير الوحيد ، الذى ينتظر الصغيرة (كارولينا) هو أن تكبر ، لتصير شابة جميـلة ، فى جمال أمهـا وذكاء أبيهـا ، وتلتقى بشاب نابه طمـوح ، وتتزوَّج ، وتنجب أبناءً ، وتصبح أمًّا إيطالية رائعة .

مطَّ دون (كورليون) شفتيه :

ـ أبناؤها لن يحملوا اسم (كورليون) .

مال نحوه :

ـ ولكنهم سيدينون بالولاء لاسم (كورليون) .

نفث دون (كورليون) دخان سيجاره فى بطء :

ـ كم أتمنى .

وفى هذه المرة، لم يحاول (ألبرتو) التعليق بشىء ...

أى شىء ...

* * *

« منذ متى تشكو زوجتك من هذا الصداع يا سيِّد (صبرى) ... »
شعر (صبرى) بقلق شديد ، يسرى فى كيانه ، عندما ألقى عليه الطبيب هذا السؤال ، فى مستشفى (وادى النيل) ، فأجاب فى بطء :
ـ منذ حوالى أسبوعين فحسب ... فى البداية تصوَّرنا أنه بسبب الإجهاد ، أو قلة ساعات النوم ، أو حتى ضعف البصر ، واكتفت هى ببعض المسكنات القوية ، التى أفلحت فى البداية ، ثم لم تعد مجدية ، فى الآونة الأخيرة .
ألقى الطبيب نظرة ، على فيلم الأشعة الدماغية أمامه ، وهزَّ رأسه فى تعجُّب :
ـ أسبوعان فحسب .
سأله (صبرى) فى توتر :
ـ ماذا هناك أيها الطبيب ؟! ولماذا أردت مقابلتى وحدى ؟!
أطلق الطبيب زفرة محدودة ، وتطلَّع إليه :
ـ سيد (صبرى) ... زوجتك تعانى من مرض عضال ، فى مرحلته الثالثة ، حتى أنه يدهشنى أنها لم تشكُ من الصداع ، سوى من أسبوعين فحسب .
جف حلق (صبرى) ، وهو يسأله :
ـ مرض عضال ؟!... أى نوع من الأمراض بالضبط ؟!
مطَّ الطبيب شفتيه لحظة ، ثم مال نحوه :
ـ ورم خبيث فى المخ .
شعر (صبرى) وكأن الطبيب قد أطلق رصاصة ، على قلبه مباشرة ، فقد اختلج قلبه داخل صدره فى قوة ، وانطلقت صرخة رهيبة ، فى أعماق كيانه ...

لا ...

ليس هى ...

ليس أجمل وأرق وألطف زوجة فى الوجود ...

ليس هى ...

بكت كل خلية من خـلاياه فى لوعة ، وشعـر بقلبه يدمى ، وبكبده يذوب

وهو يسأل ، فى صوت مبحوح :

ـ أأنت واثق ؟!

أومأ الطبيب برأسه إيجابًا فى أسف :

ـ لقد عرضت الأشعة والفحوص على أكثر من زميل ، وكلهم اتفقوا على

هذا التشخيص .

ازدرد (صبرى) لعابه الجاف فى صعوبة :

ـ وماذا عن العلاج ؟!

زفر الطبيب مرة أخرى :

ـ للأسف ... الورم فى مرحلته الثالثة ، ولقد بدأ فى إرسال ثنائيات إلى الرئة

والكبد والمعدة .

كرَّر (صبرى) فى إصرار :

ـ والعلاج .

هزَّ الطبيب رأسه :

ـ فى هذه المرحلة ، يقتصر الأمر على المسكنات القوية ، ومحاولة تخفيف

الأعراض فحسب .

غمغم فى صعوبة :

ـ أتعنى ...

لم يستطع نطق الكلمات ، ولكن السؤال بدا واضحًا للطبيب ، الذى أومأ برأسه :

ـ أربعة شهور ، على أقصى تقدير .

وهنا ، ولأوَّل مرة فى حياته ، انهار كيان (صبرى) ...

كله ...

* * *

« كم يدهشنى موقفك، أيها الرفيق المصرى ... »

نطقها ذلك الموسيقى الروسى ، وهو يتطلَّع إلى شاب ممتلئ الجسد ، فى أواخر العقد الثانى من عمره ، يرتكن معه إلى جدار متحف الفن فى (موسكو) ، فالتفت إليه الشاب فى ضجر :

ـ وما الذى يدهشك ، أيها الرفيق (إيفان) ؟!

هزَّ (إيفان) كتفيه :

ـ تقول : إنك قد أتيت من وطنك ؛ لدراسة الفن هنا ، وعلى الرغم من هذا، فأنت تحيا كالمشردين .

صمت الشاب لحظات ، ثم قال فى بطء :

ـ هناك مشكلة فى الأوراق ، التى أتيت بها إلى هنا ، جعلتهم يوقفون راتب المنحة ، الذى يرسلونه لى مؤقتًا .

تساءل (إيفان) :

ـ أية مشكلة ؟!

أشاح الشاب بوجهه :

ـ مشكلة بسيطة .

تطلَّع إليه (إيفان) لحظة ، ثم مال نحوه هامسًا :

ـ هل كانت الأوراق سليمة ؟!

صمت الشاب لحظة ، ثم ابتسم :

ـ المفترض أن تبدو كذلك .

أطلق (إيفان) ضحكة ، ولوَّح بيده :

ـ فهمت .

ثم أشعل سيجارة نفَّاذة الرائحة ، مستطردًا :

ـ وماذا ستفعل الآن ؟!

زفر الشاب ، وهزَّ كتفيه المكتظين :

ـ لست أدرى ... لم يعد هناك مكان يمكن أن أقيم فيه ، ونقودى كلها نفدت ، ولم أتناول الطعام منذ البارحة .

تنهَّد (إيفان) :

ـ أنا أيضًا .

ثم التفت إليه :

ـ لماذا لا تبحث عن عمل ... لغتك الروسية ليست ممتازة ، ولكنها جيدة بما يكفى ، ولو أنك تملك مهارة يدوية ، يمكنك أن تجد عملًا هنا .

حاول الشاب أن يبتسم فى مرارة :

ـ وهل تظن أننى لم أحاول ؟!... القانون لديكم هنا يمنع تشغيل الأجانب ،
ن تصريح أمنى .

سأله (إيفان) :

ـ وهل حاولت الحصول على تصريح ؟!

هزّ الشاب كتفيه :

ـ كلا ... التصريح يحتاج إلى تدقيقات أمنية ، ومراجعات كثيرة .

سأله فى حذر :

ـ وما مشكلة هذا ؟!

صمت الشاب لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ الأوراق لم تكن كلها صحيحة .

بدت الدهشة على (إيفان) :

ـ ألم يكشفوا هذا فى جوازات المطار ؟!

عاد الشاب يهزُّ كتفيه المكتظين :

ـ كانت متقنة إلى حد كبير ، ولولا أن أبلغتهم (القاهرة) بأمرى ، لكان من الممكن أن أحيا هنا فى هدوء .

عاد (إيفان) يميل نحوه :

ـ هل استعنت بمزوِّر جيد ؟!

هزّ الشاب رأسه نفيًا :

ـ أنا صنعتها .

تراجع (إيفان) فى دهشة :

ـ أنت ؟!

أومأ الشاب برأسه إيجابًا :

ـ أجيد هذا .

تطلَّع إليه (إيفان) طويلًا ، وهـو ينفث دخان سيجـارته النفَّاذة ، ثم سأله في اهتمام :

ـ هل تجيد الرسم ؟!

التفت إليه الشاب :

ـ بالطبع .

سأله فى اهتمام أكثر :

ـ وهل يمكنك إعادة رسم لوحة قديمة ؟

أشار الشاب بيده :

ـ ليس هذا فحـسب ، بل أستطيع نسخهـا بنفس نوع الألـوان ، ونفس الخامات ، مـع إعدادات خاصة ، تجعلك تعجـز عن معرفة الفارق ، بينها وبين اللوحة الأصلية .

هتف (إيفان) :

ـ أنت مدهش .

ثم أضاف فى حماس :

ـ هل تعرف (يورى تشيكوف) ؟!

غمغم الشاب ، وهو يزدرد لعابه ، من فرط جوعه :

ـ أخبرنى بعضهم عنه ، كواحد من أشهر بائعى اللوحات فى (موسكو) .

أشار (إيفان) بسيجارته فى حماس :

ـ ستجد لديه عملًا بالتأكيد .

بدت الدهشة على الشاب :

ـ بدون تصريح أمنى ؟!

نهض (إيفان) بنفس الحماس :

ـ مع موهبة مثلك ، لست أظن (تشيكوف) يبالى .

نهض الشاب بدوره فى صعوبة :

ـ ومتى يمكن أن أذهب إليه ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ الآن .

ثم سأله فى اهتمام :

ـ ذكرنى باسمك .

التقط الشاب نفسًا عميقًا وأجاب :

ـ (قدرى) ... اسمى (قدرى) ..

وكانت هذه بداية ...

جديدة .

* * *



الفصل الخامس

« أريد أن أوصيك بولدىّ يا (صبرى) ... » ...

دمعت عينا (صبرى) ، وهو يستعيد كلمات زوجته الأخيرة ، قبل أن تلفظ أنفاسها ، على فراش المرض ...

« لا تقلقى يا حبيبتى ... اهدئى فحسب ... » ...

« أنا هادئة يا (صبرى) ... الموت ليس مخيفًا ، كما كنا نتصوَّر ... لا يمكنك أن تتصوَّر كم أشعر بالراحة والهدوء ، وأنا أقترب منه ... »

مسح على شعرها فى حنان حزين ، وهو يقاوم دموعه فى صعوبة ، محاولًا أن يمنحها ابتسامة حب ، فى لحظاتها الأخيرة ، فالتقطت يده ، ورفعتها إلى وجهها فى ضعف ...

« عجيب هو ما يصيب العقل ، عندما تقترب النهاية ... إنه يصفو على نحو لا يمكن تصوُّره ، حتى ليكاد يتجاوز حدود الزمان والمكان ... أكاد أرى الماضى والحاضر والمستقبل ، فى لحظة واحدة ... » ...

قبَّل يدها ، التى تمسك يده ، وعلى الرغم منه ، سقطت دمعة ألم ولوعة من عينيه ، على نقطة التقاء كفيهما ...

« أنت كنت على حق يا (صبرى) ... » ...

« فيم ؟! ... » ...

« فى برنامجك مع (أدهم) ... » ...

ازدرد لعابه فى صعوبة ...

« لقد أراد رؤيتك، ولكن ... »

« واصل برنامجك معه يا (صبرى) ... ستصنع منه بطلًا عظيمًا ... سيعلى
راية الوطن عالية ، وسيصير اسمه مخيفًا ، لكل عدو ... » ...
حاول أن يبتسم ، على الرغم من الغصة المؤلمة فى حلقه ...
« هل سيصير رئيسًا ؟!... » ...
ضغطت كفه فى تهالك ...
« بل سيصير رجلًا ... رجلًا يقهر كل مستحيل ... أكمل برنامجك يا صبرى ...
هذه وصيتى ... »
كانت هذه آخر كلماتها ، قبل أنِ تتراخى أصابعها فى كفه ، وتفقد عيناها
بريق الحياة ، و ...
« (صبرى) ... »
نطق (حسام) الاسم فى خفوت حذر، منتزعًا (صبرى) من ذكرياته ، فرفع
هذا الأخير عينيه إليه ، وهو يمسح دموعه بكفه فى سرعة :
ـ ماذا هناك يا (حسام) ؟!
جلس (حسام) على مقعد مقابل للمكتب :
ـ أما زالت ذكراها تؤلمك ؟!
حاول أن يتماسك :
ـ ذكراها السنوية غدًا .
تنهّد (حسام) ، وجلس على مقعد أمام المكتب :
ـ أطال الله عمرك ؛ لتحيى ذكراها .
تمتم (صبرى) :
ـ رحمها الله .

ثم اعتدل ، وطمر حزنه تحت لهجة حازمة :

ـ ما أخبار عملية (مدريد) ؟!

أجابه فى اهتمام :

ـ تقترب من مرحلتها الأخيرة ، وسيحتاج الأمر منا إلى الذهاب هناك ، لحسم الجولة الأخيرة .

أشار إليه :

ـ قم بكل الترتيبات المطلوبة .

هم (حسام) بالنهوض ، ثم عاد يجلس فى اهتمام :

ـ ما أخبار (أدهم) ؟!

تراجع (صبرى) فى مقعده ، وانخفض صوته :

ـ يتدرَّب على إطلاق النار .

بُهت (حسام) :

ـ إطلاق النار ؟!... إنه فى العاشرة !!

ابتسم (صبرى) :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فهو قادر على امتصاص رد الفعل الارتجاعى للسلاح .

ثم مال نحوه :

ـ ويصيب الهدف بخمس طلقات من ست .

هتف مبهورًا :

ـ مذهل .

تراجع (صبرى) فى مقعده :

ـ ولكن هذا لا يكفى .
حمل صوت (حسام) كل انفعالاته :
ـ خمس رصاصات من ست ، وتقول : إن هذا لا يكفى !!
التقط (صبرى) نفسًا عميقًا :
ـ رجال العمليات الخاصة ، يصيبون بالرصاصات الست كلها .
غمغم (حسام) :
ـ إنه فى العاشرة .
هزّ (صبرى) كتفيه ، دون أن يجيب ، فسأله فى اهتمام :
ـ ولكن كيف يفعل هذا ؟!... إنه لم يبلغ بعد السن القانونية لحمل السلاح .
صمت (صبرى) لحظات مفكرًا :
ـ إنه يتدرَّب فى مزرعة (أشرف) فى (بنى سويف) .
غمغم :
ـ تخاطران أنت و (أشرف) كثيرًا ؛ فهذا غير قانونى ، ولو انكشف الأمر ، قد تفقدان وظيفتيكما .
قال (صبرى) فى ثقة :
ـ اطمئن .
صمت (حسام) لحظة ، محاولًا استيعاب الأمر ، ثم سأل :
ـ ماذا تفعل معه أيضًا ؟!
تطلّع إليه (صبرى) لحظات ، قبل أن يجيب فى بطء :

ـ تدريبات الغوص ، والتسلُّق ، ودروس الفيزياء والكيمياء المتطوِّرة ، و...

قاطعه فى انفعال :

ـ مهلًا ... هذا سيشغله كثيرًا ، عن دراسته الأساسية .

اكتفى (صبرى) بتنهيدة ، دون أن يجيب ، فهمَّ (حسام) بالنهوض مرة أخرى، ولكن (صبرى) استوقفه هذه المرة :

ـ لقد أضفت (أدهم) إلى جواز سفرى .

التفت إليه (حسام) فى قلق :

ـ أيعنى هذا أنه ...

لم يكمل عبارته ، لأن صبرى أكملها :

ـ سيسافر معنا إلى (مدريد) ... هذا صحيح .

بدت الدهشة ، فى ملامح (حسام) ولهجته :

ـ ولكن لماذا ؟!

أجابه فى حزم :

ـ وجوده معنا يعد تمويهًا جيدًا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف ، فى حزم أكبر :

ـ وتدريبًا جيدًا أيضًا .

وكان هذا يعنى أن برنامج (صبرى) يدخل مرحلة جديدة ...

وقوية ـ

إلى حد كبير ـ

***

« أخيرًا يا (توفيق) باشا ... » ...

هتف بها المهندس (معتز) ، وهو يربِّت فى حرارة وفرحة حقيقية ، على كتف صديق عمره ، الذى غمغم مبتسمًا :

ـ تعلم أننى أبغض لقب باشا هذا .

ضحك (معتز) ، وعاد يربِّت عليه فى سعادة :

ـ أعلم يا قبطان ، ولكن سعادتى بإنجابك طفلتك الأولى ، بعد سبع سنوات من الانتظار ، أخلَّت بذهنى .

ربِّت عليه (توفيق) بدوره :

ـ أعلم هذا يا (معتز) ... أنا أيضًا أشعر بسعادة جمة .

ثم مال نحوه :

ـ لكننى لست قبطانًا بعد .

ضحك (معتز) :

ـ باعتبار ما سيكون .

ثم ربِّت عليه ثانية :

ـ وكيف حال زوجتك ؟!

غمغم :

ـ بخير حال ... إنها نائمة الآن ، ولكنها رفضت أن يأخذوا منها الصغيرة ، وتشبثت بها فى شدة ، وكأنها يمكن أن تفقدها ، بعد أن طال انتظارها لها .

وافقه بإيماءة من رأسه :

ـ أستطيع تفهُّم هذا .. إنها تتشوَّق للأمومة منذ زمن .

تنهَّد (توفيق) :

ـ وكان الثمن غاليًا .

سأله فى صوت يموج بالقلق :

ـ ماذا تعنى ؟!

تلفَّت (توفيق) حوله ، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد ، ثم مال على اذنه :

ـ رحمها لم يحتمل .

امتقع وجه (معتز) ، وهو يتراجع مصدومًا :

ـ يا إلهى !! ... هل تعنى ...

منعه الارتياع ، من نطق باقى السؤال ، ولكن (توفيق) أومأ برأسه فى أسى ، وحمل صوته الكثير من الحزن :

ـ لن يمكنها أن تنجب مرة أخرى .

أغمض (معتز) عينيه فى قوة ، والحزن يعتصر قلبه :

ـ يا للمسكينة !!

وقاوم فى شدة رغبته فى البكاء ، وهو يسأل :

ـ وهل تعلم هى هذا ؟!

هزَّ (توفيق) رأسه :

ـ ليس بعد ... اتفق معى الطبيب على كتمان الأمر مؤقتًا ، والتمهيد لـ تدريجيًّا فيما بعد .

وبدا أنه يجاهد ؛ لمنع الدموع من الفرار من مقلتيه :

ـ لا نريد أن نفسد فرحتها .

التقط (معتز) نفسًا عميقًا ، أنهاه بتنهيدة حارة :

ـ لا إله إلا الله .

وازدرد لعابه ، قبل أن يغمغم ، محاولًا الانتقال إلى موضوع آخر :

ـ هل أسميتم الصغيرة ؟!

أومأ (توفيق) برأسه :

ـ نعم ... على اسم أمى رحمها الله .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ (منى) .

وكتب القدر سطرًا جديدًا ، فى حياة (أدهم) ...

(أدهم صبرى) ...

(المصرى) ...

***

بكل فضول واهتمام الدنيا ، تطلَّع (أدهم) عبر نافذة السيارة ، إلى شوارع العاصمة الإسبانية (مدريد) ، وسمع والده يسأله :

ـ (أدهم) ... هل تتحدَّث الإسبانية ؟!

التفت إليه فى دهشة :

ـ تعلم أن الجواب هو لا يا أبى ... أتحدَّث فقط الإنجليزية والفرنسية ، وما زلت أتلقى دروس الألمانية .

ظل (صبرى) يتطلَّع أمامه :

ـ إذن فأنت لا تتحدَّث حرفًا واحدًا من الإسبانية ؟!

قال فى حذر :

ـ يمكننى فهم بعض مفرداتها ولكن ...

قاطعه (صبرى) فى حزم :

ـ كم الساعة معك الآن ؟!

ألقى نظرة على الساعة الرقمية ، التى أهداه إياها والده :

ـ التاسعة وسبع عشرة دقيقة ليلًا .

صمت (صبرى) لحظة :

ـ تعلم أننا عائدون إلى (القاهرة) ظهر الغد ؟!

غمغم :

ـ أعلم يا أبى .

مرة أخرى صمت (صبرى) لحظات :

ـ أعطنى ساعتك ، وكل ما معك من نقود .

أطاعه (أدهـم) على الفـور ، دون حتـى أن يسـأله عـن السبب ، فتوقَّف (صبرى) على جانب الطريق ، وحملت لهجته شيئًا من الصرامة :

ـ انزل .

تطلَّع إليه (أدهم) فى دهشة ، ولكنه أطاعه ، وغادر السيارة ، ووقف إلى جوارها صامتًا ، فقال (صبرى) ، دون أن يلتفت إليه :

ـ لا تفوِّت موعد الطائرة .

ثم انطلق بالسيارة ، تاركًا ولده يقف فى مكان يجهله ...

بلا نقود ...

وبلا لغة ...

وبلا أى شىء على الإطلاق ...

« أنت تدهشنى كثيرًا يا (صبرى) !!... »

هزَّ (حسام) رأسه فى قوة ، وهو ينطق العبارة، قبل أن يكمل فى عصبية

ـ كيف يمكنك أن تترك ولدك هكذا ، فى دولة غريبة ، دون ناقة ولا جمل ؟!

كان (صبرى) يشعر بتوتر شديد ، وقلق بلا حدود ، ولكن هذا لم يتجاوز أعماقه ، وهو يقول فى حزم :

ـ وماذا لو واجه هذا الموقف يومًا ؟

هتف (حسام) :

ـ سيكون قد نضج أكثر .

ازدرد (صبرى) لعابه فى صعوبة :

ـ إنه ناضج بما يكفى .

عاد (حسام) يهزُّ رأسه فى قوة :

ـ وماذا لو ضل طريقه ، ولم يستطع اللحاق بالطائرة ؟!

شعر (صبرى) وكأن السؤال يمس أعماقه شخصيًا ، فأجبرته غصة على الصمت بضع لحظات ، خفض بعدها صوته ، حتى لا يفصح عن مكنوناته :

ـ أنا واثق بقدراته .

وصمت لثانية واحدة ، ثم استدرك :

ـ أنا من درَّبه .

مرة أخرى ، هزَّ (حسام) رأسه فى شدة :

ـ لم أتصوَّرك عنيدًا إلى هذا الحد ... لو كنت تزوَّجت ، وأنجبت ابنًا ، لما جرؤت على وضعه فى تلك المواقف ، التى تضع فيها ابنك .

خفض (صبرى) صوته أكثر :

ـ وهذا ما سيجعله متميزًا .

ألقى (حسام) نظرة على ساعته :

ـ إنها الخامسة صباحًا ، ولم يعد بعد ... ما زال أمامنا وقت كاف ، للخروج والبحث عنه ، و ...

قاطعه (صبرى) ، وهو يتطلّع عبر نافذة السفارة :

ـ لا داع لهذا .

حمل صوت (صبرى) ارتياحًا ، جعل (حسام) يندفع نحو النافذة بدوره ، قبل أن يخفق قلبه فى قوة ، ويرتفع حاجباه بكل الدهشة ، وهو يتطلّع إلى ذلك الذى يعبر حديقة السفارة ، فى هدوء وثقة ...

كان (أدهم) ...

***

ملأت وجه (يورى تشيكوف) ابتسامة كبيرة ، وهو يتأمّل تلك اللوحة الجديدة ، وهتف فى انبهار :

ـ مذهل أيها الرفيق (قدرى) ... تبدو تمامًا وكأنها اللوحة الأصلية ... حتى الخبراء يمكن أن ينخدعوا فيها .

غمغم (قدرى) ، من خلال لغته الروسية الركيكة :

ـ حتى هم سيعجزون عن التفرقة .

التفت إليه (تشيكوف) :

ـ لهذا طلبت تلك الخامات ؟!

أومأ برأسه :

ـ كان لابد من تركيب الألوان ، بنفس المواد التى كان يستخدمها الفنان القديم ...

الرصاص والزنك والخامات الملوّنة الطبيعية .

هتف (تشيكوف) مشيرًا إلى اللوحة :

ـ حتى فرشاتك ، صنعت من شعر ذيل الحصان ، مثل تلك القديمة ، ولكن كيف صنعت تلك الشقوق الرفيعة ، التى توحى بالقدم ؟!

هزّ كتفيه ، الذين ازدادا اكتظاظًا :

ـ تعريضها لعوامل جوية متعارضة ، من تسخين وتبريد .

اتسعت ابتسامة (تشيكوف) ، حتى كادت تملأ وجهه كله :

ـ انت عبقرى أيها الرفيق .

ثم أطلق ضحكة قصيرة :

ـ لست أدرى كيف تعجز عن تحسين لغتك الروسية ، ما دمت تمتلك موهبة جبارة كهذه ؟!

ابتسم (قدرى) :

ـ ربما تعاظمت ، حتى ابتلعت باقى القدرات الأخرى .

قهقه (تشيكوف) ضاحكًا ، ووضع اللوحة أرضًا فى حذر ، ثم اعتدل ملوّحًا بكفه :

ـ أراهن أنك تشعر بجوع شديد الآن ... كالمعتاد .

ربّت (قدرى) على كرشه :

ـ بدأت تفهمنى .

هتف (تشيكوف) ضاحكًا :

ـ هذا أمر طبيعى ...لابد من ملء الآلة بالوقود ، حتى يمكنها أن تعمل بكفاءة .

أشار (قدرى) بسبّابته :

ـ بالضبط .

لم يكد ينطقها ، حتى سمع صوتًا باردًا قاسيًا من خلفه :

ـ أية آلة تلك ، التى تحتاج إلى الوقود ، أيها الرفيق (تشيكوف) ؟!

التفت الاثنان فى آن واحد ، لترتطم عيونهما بوجه ، أشد برودة وقسوة من الصوت ...

وجه (سيرجى) ...

(سيرجى كوربوف) ...

***

ابتسم (صبرى) ، وهو يتناول كوب شاى ، من يد شقيقته (منال) :

ـ تسلم يداك ... أنت خير شقيقة .

ابتسمت ، وهى تجلس إلى جواره :

ـ وهل لدينا سوى بعضنا بعضًا ... أنت شقيقى الوحيد ، وأنا شقيقتك الوحيدة .

قبّل يدها :

ـ وأنت اليوم بمثابة أم بديلة ، لـ (أحمد) و(أدهم) ، بعد وفاة أمهما رحمها الله .

ارتسم مزيج من الأسى والحزن على وجهها :

ـ لقد نذرت حياتى لهما .

ربّتت عليها فى حنان :

ـ ليس هذا عدلًا ... لابد وأن تتزوّجى ، وتنجبى ، و ...

قاطعته فى حدة :

ـ كلا .

التفت إليها فى دهشة :

ـ ولكنها سنة الحياة .

هزت رأسها فى إصرار :

ـ لن آتى بمن ينتزع جزءًا من محبتهما من قلبى ، ويختصر لحظة من رعايتى وعنايتى لهما .

كرّر فى أسى :

ـ ليس هذا عدلًا .

اقترب منهما (أدهم) فى هذه اللحظة :

ـ أبى ... هل يمكننى أن أتحدث إليك قليلًا .

ابتسم له :

ـ ولكن لدى ما أناقشه مع عمتك .

نهضت (منال) :

ـ لا يوجد ما يمكن أن نناقشه ... تحدَّث مع ابنك ، بينما أنهى عملى فى المطبخ .

راقبها وهى تبتعد ، ثم أشار إلى مقعدها :

ـ ماذا تريد يا (أدهم) ؟!

جلس (أدهم) على المقعد ، الذى أشار إليه والده :

ـ أريد أن أفهم .

سأله فى اهتمام :

ـ تفهم ماذا ؟!

بدا (أدهم) جادًا :

ـ ما حدث فى (مدريد) ؟!

تطلّع إليه (صبرى) لحظات فى صمت ، قبل أن يسأله فى بطء :

ـ هل أفادك ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ بالطبع .

ثم استدرك فى حزم ، يفوق سنوات عمره كثيرًا :

ـ لم أفهم فى البداية ، ولكننى أدركت أنه جزء مما تدربنى عليه ، فاسترشدت بالنجوم فى السماء ، وبإشارات الشوارع ، وبالخارطة ، التى جعلتنى أحفظها عن ظهر قلب ، ونحن فى الطائرة .

ابتسم (صبرى) :

ـ ووصلت ؟!

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، فالتقط (صبرى) نفسًا عميقًا فى ارتياح ، ثم ربّت عليه :

ـ وهذا هو الهدف ... أن تتعلم من كل ما يتاح لك ، وأن ترتب أولوياتك دومًا ، وفقًا لمقتضيات الموقف ... حفظ الخارطة ساعدك على الوصول إلى مبنى السفارة ، على الرغم من أنك لم تكن تملك بوصلة أو نقودًا ، أو حتى لغة .

غمغم (أدهم) :

ـ لقد بدأت فى تعلمها .

أوما برأسه :

ـ كل لغة تضيفها إلى حصيلتك ، ستزيد من مهاراتك ، وتضاعف من قدراتك ، ومن فرص نجاحك ، فى أية مواجهة ... ودراسة أرض المعركة ، تجعلك قادرًا على المراوغة والمناورة ، والإفلات أحيانًا ، لو أنه هناك من يطاردك ... ولهذا احرص على الحصول على خارطة أى مكان ، تتواجد فيه للمرة الأولى ، وتدرَّب على حفظها ، قبل أن تهبط إلى شوارع المكان فعليًا .

تمتم (أدهم) :

ـ لن أنسى هذا أبدًا .

اتسعت ابتسامة (صبرى) ، وهو يربِّت عليه :

ـ كيف هى الأمور الأخرى ؟!

ابتسم (أدهم) :

ـ ألم يبلغك المدربون ؟!

أومأ برأسه :

ـ (أشرف) أبلغنى أنك تصيب الهدف بكل الرصاصات ، فى كل مرة ، باليد اليمنى واليسرى ، وأنك أسرع من رأى ، فى إعادة تلقيم السلاح ، ومدرب رياضة الشيش أكَّد لى ، أنك تجيد استخدام السيف ، كما لو أنك أحد فرسان العصور الوسطى ، ونتائجك فى الغوص والقيادة وركوب الخيل مدهشة .

وعاد يربِّت عليه :

ـ الكل يتفق على أنك موهوب ، فى استيعاب وإجادة كل جديد .

سأله (أدهم) :

ـ وماذا عن النحت ؟!

ارتفع حاجبا (صبرى) فى دهشة :

ــ نحت ؟!... هل تجيد النحت ؟!

أشار بسبَّابته :

ــ هناك ما هو أكثر .

وفى هذه اللحظة ، ازداد يقين (صبرى) بأن القدر يتفق معه فيما يسعى إليه منذ أعوام ...

فالابن ، الذى اختار أن يجرى عليه تجربته ، يكاد يكون الشخص الوحيد ، الذى يمكن له الخضوع لهذا فى العالم ...

ففى عمره كله ، لم يلتق بشخص واحد ، جمع كل هذه المواهب مكتملة ..

وهذا يستحيل أن يكون مجرَّد مصادفة ...

إنه حتمًا قدره ...

وقدر (أدهم) ...

دون أدنى شك .

***



الفصل السادس

امتقع وجه (تشيكوف) على نحو مثير للشفقة ، وهو يتطلّع إلى وجه (سيرجى كوربوف) ، الذى نقل نظراته الصارمة ، بين وجهه ووجه (قدرى) :

ـ أما زلت تمارس هذا العمل المشبوه ، أيها الرفيق (يورى) ؟!

ألقى السؤال ، وهو يتمعّن فى وجه (قدرى) ، الذى ظلّ صامتًا ، ورسم ابتسامة ودودًا ، ساعدت ملامحه الطفولية ، على جعلها شديدة البراءة ، فغمغم (تشيكوف) مرتجفًا :

ـ إنها تجارة مشروعة أيها الرفيق (كوربوف) ، ما دمت لا أدّعى أنها لوحات وتحف أصلية .

بدا أن (سيرجى) لم يستمع إلى الإجابة ، وهو يسأل فى صرامة ، مشيرًا إلى (قدرى) :

ـ من هذا ؟!

ازدرد (تشيكوف) لعابه فى صعوبة :

ـ مساعد جديد .

وجّه (سيرجى) كل انتباهه واهتمامه وصرامته إلى (قدرى) :

ـ ما اسمك يا هذا ؟!

وسقط قلب (تشيكوف) بين قدميه ...

فمع أوّل كلمة ، ينطق بها (قدرى) ، بلغته الركيكة ، حتى يدرك (سيرجى) على الفور ، أنه ليس سوفيتيًا ، ولا يمكن أن يمتلك تصريح عمل ...

ومع رجل مثل (سيرجى كوربوف) قد يعنى هذا الاعتقال مدى الحياة ...
أو ما هو أسوأ ...

المأساة أن هذا لن يشمل (قدرى) وحده ...

بل سيشمله أيضًا ...

الفكرة جعلت ركبتيه ترتجفان ، حتى كادتا تعجزان عن حمله ...
ولهذا فقد أدهشه فى شدة ، ما أقدم عليه (قدرى) ...

لقد اتجه نحو (سيرجى) فى هدوء ، وقدَّم له بطاقتين ، التقطهما منه (سيرجى) ، دون أن يرفع عينيه عن وجهه ، ثم طالعهما فى اهتمام ، وعاد يتطلَّع إلى ابتسامة (قدرى) الطفولية ، قبل أن يغمغم :

ـ ولكننى أكاد أجزم بأننى سمعتك تقول شيئًا ، إبان دخولى :

ـ همهم (قدرى) همهمة غير مفهومة ، لم يدرك (تشيكوف) ما تعنيه ، ولكنه رأى (سيرجى) يلوِّح بالبطاقتين ، وسمعه يقول فى صرامة :

ـ سأحتفظ بهما ليوم أو يومين ؛ لمراجعتهما .

لم يفقد (قدرى) ابتسامته الطفولية ، وهو يومئ برأسه ، فالتفت (سيرجى) إلى (تشيكوف) فى صرامة :

ـ استبدل سروالك هذا ، الذى يبتل كلما أتيت لزيارتك .

انتبه (قدرى) إلى أن سروال (تشيكوف) مبتل بالفعل ، وهو يغمغم مرتجفًا :

ـ كما تأمر ، أيها الرفيق (كوربوف) .

غادر (سيرجى) المتجر ، دون حرف إضافى ، وما إن ابتعد ، حتى التفت (تشيكوف) إلى (قدرى) فى انفعال :

ـ ماذا فعلت به ؟!

أشار (قدرى) إلى سرواله :

ـ استبدل سروالك أوَّلًا .

هتف به (تشيكوف)

ـ أخبرنى أوَّلًا ماذا فعلت به ؟!... أى بطاقتين قدمتهما له ؟! .

ابتسم (قدرى) :

ـ بطاقة هوية ، باسم (رابينوفيتش كادروف) .

بُهت (تشيكوف) :

ـ هوية سوفيتية ؟!

أومأ (قدرى) برأسه إيجابًا ، فغمغم ذاهلًا :

ـ ولم يكشف أمرها ؟!

هزَّ (قدرى) كتفيه المكتظين :

ـ إنها متقنة ، إلى حد كبير .

فغر (تشيكوف) فاه ، وارتجفت شفتاه ، وكأنه يحاول قول شىء ما ، ثم لم يلبث أن تراجع عنه ، ليسأل :

ـ وماذا عن البطاقة الأخرى ؟!

ابتسم (قدرى) :

ـ إنها بطاقة الصم والبكم ، تقول إننى ضعيف السمع ، ولا أستطيع الكلام .

برقت عينا (تشيكوف) :

ـ لمداراة ضعف لغتك .

أشار بسبّابته :

ـ بالضبط .

انعقد حاجبا (تشيكوف) فى شدة ، وبدا قلق شديد على ملامحه :

ـ ولكنه احتفظ بالبطاقتين .

وشحب صوته ، وهو يستدرك :

ـ لفحصهما .

التقط (قدرى) نفسًا عميقًا :

ـ سيستغرق منهم هذا وقتًا طويلًا .

غمغم (تشيكوف) فى شبه انهيار :

ـ إنهم الـ (كى جى بى) ، بإمكانياتهم اللامحدودة ، وسيكشفون أمرهما وأمرك حتمًا .

حمل صوت (قدرى) منتهى الجدية :

ـ أعلم هذا .

ثم عاد يلتقط نفسًا عميقًا :

ـ وهذا يحتم أن أغادر المكان ؛ لأنه سيعود حتمًا .

غمغم (تشيكوف) ، وساقاه ترتعدان :

ـ أخشى التفكير فيما سيفعله عندئذ .

تنهَّد (قدرى) :

ـ اطمئن ... الوقت الذى سيستغرقونه ؛ لكشف زيف البطاقتين ، سيك[...] المبرِّر المنطقى لتظاهرك بالدهشة والصدمة ، وإصرارك على أنك قد خد[...] [أ]يضًا .

زفر متمتمًا :

ـ ربما .

ربّت عليه (قدرى) :

ـ بالمناسبة ، يمكنك بيع اللوحة الأخيرة ، باعتبار أنها لوحة أصلية .

أشار بإبهامه :

ـ اللوحة الأصلية فى متحف (موسكو) .

مال نحوه مبتسمًا :

ـ يمكنك الادعاء بأن تلك ، التى فى متحف (موسكو) ، هى المقلّدة ، وأنك دفعت رشوة كبيرة لاستبدالها .

وغمز بعينه :

ـ هذا سيضاعف من ثمنها .

تطلّع إليه لحظات ، قبل أن يغمغم :

ـ أنت تستحق أجر شهرين ، وسأمنحك ضعفهما كمكافأة ، فهل تريد شيئًا آخر ؟!

أشار إليه (قدرى) :

ـ نعم ... استبدل سروالك .

وعلى الرغم من الموقف ، أطلق (تشيكوف) ضحكة ... صافية ...

***

نهض (ناصر يوسف) ، مدرب (أدهم) للرياضات القتالية ، يصافح (صبرى) فى حرارة واحترام ، وملأت وجهه ابتسامة كبيرة :

ـ شرفتنا بقدومك يا سيد (صبرى) .

صافحه (صبرى) فى رصانة :

ـ أتيت على الفور ، عندما أخبرتنى هاتفيًا ، أنك ترغب فى مقابلتى .

جلس (ناصر) ، مشيرًا إلى مقعد أمامه :

ـ إنه بخصوص (أدهم) .

أطلَّ مزيج من الاهتمام والقلق ، من وجه (صبرى) وصوته :

ـ ماذا عنه ؟!

غمغم المدرِّب :

ـ كل الخير .

ثم اعتدل ، مستطردًا :

ـ ابنك مدهش يا سيد (صبرى) ... حصل على الحزام الأسود فى الكاراتيه، وهو فى الثانية عشرة ، إلى جوار بطولة الجمهورية للناشئين ، فى رياضة الشيش ويشارك فى الفريق الوطنى للجمباز ، ولديه القدرة على الغوص لثلاثين مترًا ، تحت سطح البحر ، ويستخدم القوس والنشاب ، ويركب الجياد، كما لو كان فارسًا عربيًا أصيلًا ، من العصور القديمة .

لم يستطع (صبرى) منع نفسه من الفخر ، وهو يغمغم :

ـ أعلم هذا .

مال (ناصر) نحوه :

ـ ألديك اعتراض ، على أن أسعـى لنقله إلى مستـوى جديد ، لم يبلغه أحد من قبل ؟!

تطلّع إليه (صبرى) فى صمت ، وخفق قلبه بين ضلوعه فى شدة ...

ها هو ذا القدر مرة أخرى ...

مستوى جديد ، لم يبلغه أحد من قبل ...

هذا ما حلم به طيلة عمره ...

« بل إننى أرجوك أن تفعل ... » ...

تهلّلت أسارير (ناصر) ، عندما سمع الجواب ، وهتف فى حماس :

ـ لن تندم أبدًا ... أؤكّد لك يا سيِّد (صبرى) أنك لن تتذمر أبدًا .

***

« ولكن ما يطلبه منى مستحيل علميًا يا أبى ! ... » ...

قالها (أدهم) فى حذر ، على نحو جذب انتباه شقيقه ، وهم يجلسون جميعًا ، حول مائدة العشاء :

ـ ولماذا مستحيل ؟!

ألقى (أحمد) السؤال فى اهتمام ، فأشار (أدهم) بيده :

ـ إنه يطالبنى باستخدام كل أطرافى الأربعة فى القتال .

غمغم (أحمد) :

ـ وماذا فى هذا ؟!

أكمل (أدهم) فى حزم :

ـ فى آن واحد .

مال (أحمد) نحوه فى حيرة :

ـ تقاتل بأطرافك الأربعة ، فى آن واحد ؟!

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، فتراجع (أحمد) فى مقعده :

ـ هذا مستحيل عمليًا وعلميًا بالفعل .

كان (صبرى) يكتفى بنقل بصره بينهما فى صمت ، عندما تساءلت عمتهما (منال) :

ـ لماذا مستحيل ؟!

أشار (أحمد) بيده فى ثقة :

ـ لابد من وجود نقطة ارتكاز ؛ فمن المستحيل أن يحرِّك أى شخص أطرافه الأربعة ، دون أن يرتكز على شىء ما .

هزَّت كتفيها :

ـ هذا منطقى .

نقل (صبرى) بصره بينهما لحظة، ثم سأل (أدهم) فى هدوء :

ـ ما هو أقوى عامل ، فى القتال اليدوى يا (أدهم) ؟!

أجابه فى اهتمام :

ـ المرونة والسرعة .

تراجع فى مقعده :

ـ خطأ .

تطلَّع إليه الكل فى دهشة ، فتابع بنفس الهدوء ، مشيرًا إلى رأسه :

ـ أقوى عامل ، فى أى قتال يدوى هو هذا ... عقلك .

بدا (أدهم) شديد الاهتمام ، وهو يتطلّع إليه :

ـ ماذا لو حاصرك الأعداء من كل جانب ؟!... هل تتصوَّر أنهم سيتبعون ما يحدث فى أفلام الدرجة الثالثة ، ويهاجمونك واحدًا بعد الآخر ؟!... كلا بالطبع ... إنهم سيهاجمونك من كل صوب ، وفى آن واحد .

غمغم (أحمد) فى عناد :

ـ ما زال تحريك الأطراف الأربعة ، فى آن واحد مستحيل ، دون محور ارتكاز .

أشار إليه (أدهم) أن يصمت ، وهو يسأل :

ـ ماذا علىّ أن أفعل فى مثل ذلك الموقف ؟!

أجابه فى هدوء حازم :

ـ فى البداية ، عليك تقدير قوة خصومك تقديرًا سليمًا ، فلا تستهين بقدراتهم ، ولا تبالغ فى تقديرك قوتك ... ثم حدد مواقعهم ، فى سرعة ودقة .

ومال نحوه :

ـ ثم ضع خطتك الهجومية .

وعاد يعتدل :

ـ وكل هذا ، يجب أن يتم ، فى جزء من الثانية .

هتفت (منال) :

ـ جزء من الثانية ؟!... مستحيل طبعًا !!

نظر إليها (أدهم) ، ثم عاد ببصره إلى والده ، دون أى تعليق ، ولكن (أحمد) قال فى حيرة :

ـ ما صلة كل هذا ، بتحريك الأطراف الأربعة ، فى آن واحد .

مال (صبرى) عبر المائدة :

ـ ما دمت قد وضعت خطتك ، فكل ما عليك هو أن تقفز ، ثم تحرك كل من أطرافك الأربعة ، فى الاتجاه الصحيح ، وبعدها تهبط على قدميك ، دون الحاجة ، فى هذه الحالة ، إلى محور ارتكاز .

بدت الدهشة على (أحمد) و(منال) ، فى حين تساءل (أدهم) فى اهتمام :

ـ هذا يحتاج إلى مرونة غير طبيعية .

ابتسم (صبرى) ، وهو يعتدل على مقعده :

ـ وماذا عن الحزام الأسود فى الكاراتيه ، والفريق الوطنى للجمباز ، وكل المهارات الأخرى ، التى اكتسبتها ؟!

غمغم (أحمد) :

ـ لن يمكنه تجاوز حدود القدرات البشرية .

وقالت (منال) فى عصبية :

ـ لا تزيد الضغوط عليه يا (صبرى) .

أما (أدهم) ، فبدت عليه علامات تفكير جدى :

ـ يمكننى أن أحاول .

هزَّ (أحمد) رأسه فى قوة :

ـ مهما فعلت ، فأنت مجرَّد بشرى .

التقط (صبرى) نفسًا عميقًا :

ـ القدرات البشرية بلا حدود ... راجع موسوعة (جينيس) للأرقام القياسية(*)، ستجد أن الأرقام القياسية تتزايد ، فى كل عام ، وهذا يعنى أنه فى كل مرة ، يصل فيها أحدهم ، بالمران والتدريب ، إلى رقم قياسى ، يأتى آخر ، فى العام التالى ؛ ليتجاوز ذلك الرقم ، ويصنع رقمًا قياسيًا جديدًا ، وهكذا .

ثم أدار عينيه فى وجوههم ، مستطردًا :

ـ بما يعنى أنه لا حدود فعليًا للقدرات البشرية .

بدا الانبهار على (أحمد) وعمته ، فى حين قال (أدهم) فى حزم :

ـ سأحاول إذن .

والتقط (صبرى) نفسًا عميقًا ، يموج بالارتياح ...

بلا حدود ...

* * *

« من هذا الرجل ؟!... » ...

ألقى (جراهام) هذا السؤال ، على أحد رجاله ، وهو يشير إلى صورة (صبرى) ، ضمن عدد من الصور ، تكرر وجوده فيها ، فهزّ الرجل رأسه فى حيرة :

ـ لست أدرى .

التقط (جراهام) مجموعة الصور ، وتراجع فى مقعده ، يراجعها كلها فى إمعان ، قبل أن يغمغم :

(*) موسوعة (جينيس) : كتاب يصدر سنويًا ، يحتوى على الأرقام القياسية العالمية المسجلة والمعروفة ، ويعد أدق المراجع ، التى يتم الرجوع إليها ، فى هذا الشأن .

ـ لقد تكرّر وجوده ، بالقرب من السفارة المصرية ، فى (وارسو) و (بروكسل) و (لندن) و(باريس) ، و (الدار البيضاء) .

وشرد ببصره ، متمتمًا ، كما لو أنه يحدّث نفسه :

ـ وفى كل مرة ، كانت لدينا عملية تدار ، فى الدولة نفسها .

سأله الرجل فى اهتمام :

ـ أدون (جراهام) ، هل تظن أنه أحدهم ؟!

ظلّ (جراهام) على شروده :

ـ حتمًا ... ولكن الأهم ، أن كل تلك العمليات ، كانت من الطراز الذى يتولاه (الباشا) .

تراجع الرجل بكل الدهشة :

ـ (الباشا) ؟!

التفت إليه (جراهام) ، وكأنه يستفيق من حلم عجيب ، وتطلّع إليه لحظة فى صمت ، ثم أشار إلى الباب :

ـ اخرج ودعنى وحدى .

غمغم الرجل ، وهو يتجه نحو الباب :

ـ أمرك أدون (جراهام) .

قال فى حزم ، قبل أن يغادر الرجل :

ـ ابق على مقربة ، فقد أستدعيك ، بين لحظة وأخرى .

كرّر الرجل ، وهو يغادر الحجرة :

ـ كما تأمر أدون (جراهام) .

لم يكد الرجل يغلق الباب خلفه ، حتى التقط (جراهام) سمّاعة هاتف خاص مؤمن ، وطلب رقمًا دوليًا :

ـ (راشيل) ... كيف حالك ... أنا (دافيد) ... (دافيد جراهام) .

هتفت (راشيل) فى حماس :

ـ (دافيد) ... كيف حالك ؟!... من أين تتحدّث ؟!

أجابها فى عجالة :

ـ من سفارتنا فى (نيودلهى) ... المهم ... اسمعينى جيدًا ، فلدى خبر هام .

سألته فى اهتمام :

ـ بخصوص ماذا ؟!

قبض على سمّاعة الهاتف جيدًا :

ـ بخصوص (الباشا) .

ساد الصمت لحظة ، عبر أسلاك الهاتف ، قبل أن تسأل هى ، فى صوت مبحوح :

ـ هل كشفت هويته ؟!

تمتم ، وهو يراجع الصور :

ـ أظن هذا .

هتفت مستنكرة :

ـ تظن ؟!

قال فى شىء من العصبية :

ـ أظننى أمسكت بطرف خيط .

صمتت لحظة أخرى :

ـ طرف خيط موثوق ؟!

أجابها ، وهو يلقى نظرة على إحدى الصور :

ـ إلى حد كبير .

قالت فى بطء :

ـ ولكنك تحتاج إلىَّ .

ابتسم :

ـ يروق لى ذكاؤك يا عزيزتى (راشيل) ... أنا بالفعل أحتاج إلى تعاونك ، فمنذ نقلونى إلى قطاع السفارات فى الخارج ، أفقد كثيرًا إمكانيات الجهاز .

سألته فى جدية :

ـ ماذا تريد يا (دافيد) ؟!

قال فى اهتمام شديد :

ـ ذلك البرنامج الأمريكى الجديد ، لتعرُّف الوجوه .

قالت فى حزم :

ـ فهمت .

أغلق عينيه ، وشعر بالكثير من الارتياح ...

الآن اقتربت الساعة ، التى انتظرتها طويلًا ...

ساعة الحسم ...

والثأر ...

***

ارتفع حاجب العمة (منال) فى دهشة شديدة ، وهى تتطلّع إلى (أحمد) ، هاتفة :

ـ كيف هذا ؟!... لقد تركتك للتو فى الحديقة .

ابتسم (صبرى) ، وهو يرتشف شاى الصباح :

ـ كف عن هذا العبث يا (أدهم) .

اتسعت عينا (منال) أكثر :

ـ أهذا (أدهم) ؟!

انتزع (أدهم) قناع (أحمد) عن وجهه ، وهو يبتسم :

ـ معذرة يا عمتى ... كنت أختبر الأمر فحسب .

هتفت فى ذهول :

ـ ولكن كيف ؟!... لقد كنت نسخة طبق الأصل من أخيك !!

ارتشف (صبرى) رشفة أخرى من الشاى :

ـ إنه بارع فى هذا ؟!

هتفت ، والذهول لم يفارقها بعد :

ـ ولكن كيف ؟!... متى تعلّم أن يبرع فى هذا ؟!

تبادل (صبرى) ابتسامة مع (أدهم) :

ـ عندما اصطحبته معى إلى (إيطاليا) ، فى منتصف الصيف الماضى ، تركته لدى (مارشيللو) ، أشهر خبراء المكياج فى (أوروبا) ؛ ليعلمه كيفية صنع الأقنعة السينمائية ، وقوالب الوجوه ، على نحو غير ملحوظ .

جلست مغمغمة :

ـ وهكذا استطاع أن يكون نسخة خادعة من (أحمد) .

غمغم (أدهم) :

ـ لم تكن متقنة تمامًا .

ثم أضاف ، مشيرًا إلى (صبرى) :

ـ أبى كشفها ، من النظرة الأولى .

التفتت إلى شقيقها فى دهشة :

ـ حقًا ؟!

أشار إليه (صبرى) :

ـ أوَّلًا ، أنت أطول قامة من (أحمد) ، وثانيًا ، أنا محترف ، وثالثًا ، وهو الأهم .

وغمز بعينه :

ـ من موقعى هذا ، كنت أراك وأرى (أحمد) ، وهو يستذكر فى الحديقة ، فى وقت واحد .

غمغم (أدهم) :

ـ هكذا .

ارتشف (صبرى) رشفة الشاى الأخيرة ، ووضع الفنجان إلى جواره :

ـ هيا ... استبدل ملابسك فدرس القتال الخاص سيبدأ ، بعد أقل من ساعة .

اتجه (أدهم) لتبديل ملابسه ، فالتفتت (منال) إلى (صبرى) :

ـ ما الذى تفعله بهذا الصبى ؟!

صمت لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ أنفذ وصيتها .

هتفت فى خفوت :

ـ أية وصية ... هل أوصتك بحرمانه من حياة كل من فى مثل عمره ، وإغراقه فى عشرات التدريبات ليل نهار ؟!

أجاب فى حسم :

ـ أوصتنى أن أجعل منه رجلًا عظيمًا .

انعقد حاجباها فى شدة :

ـ لكى يصير رجلًا عظيمًا لابد وأن يكون صبيًا سعيدًا أوَّلًا .

التفت إليها .

ـ هل شكا من شىء .

هزّت رأسها فى قوة :

ـ إنه لا يشكو أبدًا .

ودمعت عيناها ، وهى تضيف :

ـ للأسف !

بدت عليه الدهشة :

ـ ولماذا الأسف ؟!

لوّحت بيدها ، من وسط دموعها :

ـ لأنه شاب عادى ، مثل أى شاب فى عمره ، يتوق إلى أمور حياتية عادية ، وليس مجرّد تدريبات قتالية .

ربّت عليها فى حنان :

ـ ولكن هذا يسعده ، ويملأ نفسه بالثقة ، على عكس ما تتصورين ... (أدهم) ليس مجرّد شاب عادى يا (منال) .

غمغمت باكية :

ـ هذا ما تتصوَّره .

ابتسم مشفقًا :

ـ ولكن (أدهم) فارس بغريزتـه ... فارس مثل فرسـان العصور القديمة ... الشباب فى مثل سنه ، كانوا يدربونهم على السباحة والرمـاية وركوب الخيل ، منذ نعومة أظفارهم ، وهذا ما درَّبته عليه ، وما سعيت لغرسه فيه .

بكت :

ـ ومن قال : إنه يحب هذا ؟!

أجاب فى سرعة :

ـ حماسته الشديدة ، وإقباله على كل ما يتعلمه ... لا تتصوَّرى أننى أجبره على شىء ... أنا فقط أعاونه على بلوغ ما يسعى إليه ، ولو شعـرت لجزء من الثانية ، أنه يضيق بأى شىء ، لأوقفت البرنامج كله على الفور .

غمغمت ، وهى تمسح دموعها :

ـ ألا تشعر أنك تظلمه بهذا ؟!

تنهَّد :

ـ لو شعرت ، أو شككت حتى فى هذا ، لما واصلت .

تمتمت :

ـ أتعشَّم أن تكون على حق .

مالت نحوه :

هذا (أحمد) ؟!

ـ ألا تخشى أن يؤذى هذا (أحمد) ؟!

سألها فى قلق :

ـ فيم ؟!

اختلست نظرة إلى (أحمد) ، المنهمك فى استذكار دروسه فى الحديقة ، وهمست فى حذر :

ـ أن يغار من اهتمامك الشديد بـ (أدهم) .

انعقد حاجباه فى قلق :

ـ لم يُبد هذا أبدًا .

همست فى أسى :

ـ ليس من الضرورى أن يبديه .

تطلَّع إلى (أحمد) فى قلق :

ـ أنت على حق .

تمتمت :

ـ هل تضع هذا فى اعتبارك ؟!

غمغم :

ـ أعدك .

وعاد ينظر إلى ابنه الأكبر ، والقلق يتسلَّل إلى كيانه ...

لقد تحدَّث بالفعل مع (أحمد) ، وشرح له لماذا يصطحب معه (أدهم) ، فى أسفاره الخارجية ...

ولكن هل قنع عن رضى ؟! ...

أم أن هذه هى أكبر فجوة فى برنامجه ؟!

تضاعف قلقه ، وتضاعفت تساؤلاته ألف مرة ...

ولكن بلا جواب ...

على الإطلاق .

* * *



الفصل السابع

ارتسمت ابتسامة كبيرة ، على شفتى (جراهام) ، وهو يستقبل (راشيل) فى مكتبه ، فى سفارتهما فى (نيودلهى) :

ـ يالها من مفاجأة عظيمة ، يا عزيزتى (راشيل) !! ... لم أتوقَّع حضورك شخصيًا أبدًا .

قبلت وجنتيه ، قبل أن تجلس أمامه :

ـ حصلت على إجازة قصيرة ، قرَّرت قضاءها هنا ، خاصة وأننى لم أرك ، منذ زواجك .

مال نحوها :

ـ أهذا هو السبب الوحيد ؟!

مالت نحوه بدورها :

ـ أحمل لك أخبارًا سارة أيضًا .

بدا عليه اهتمام شديد ، جعله يتراجع فى مقعده ، وهى تتابع :

ـ أخبار لم يكن من الآمن التحدّث عنها عبر الهاتف .

عاد يميل نحوها فى اهتمام شديد :

ـ هل توصلت إليه ؟!

ناولته ورقة مطوية :

ـ لم يكن هذا هينًا ، ولكننى فعلتها .

هتف ، وهو يفض الورقة فى لهفة:

ـ حقًا ؟!

تركته يفض الورقة ، وهى تقول :

ـ اسمه (صبرى محمد المصرى) ، ضابط صاعقة سابق ، ولم يستطع أحد تحديد وظيفته الحالية .

غمغم ، وهو يقرأ الورقة :

ـ نحن نعرفها .

تابعت :

ـ فقد زوجته منذ بضعة أعوام ، ولديه منها ولدان ، و ...

قاطعها بإشارة من يده :

ـ كل هذا هنا .

تراجعت فى مقعدها :

ـ ماذا تنوى أن تفعل ؟!

رفع عينيه عن الورقة :

ـ هل أبلغت الإدارة ، بما توصَّلت إليه ؟!

هزَّت رأسها نفيًا :

ـ أخبرنى أنت ... هل أفعل ؟!

أجاب فى صرامة :

ـ كلا .

ثم عاد يقرأ الورقة فى اهتمـام ، فتطلَّعت هـى إليه فى صمت ، ثم سألته فى خفوت :

ـ أما زلت مصرًا على رأيك ؟!

حمل صوته كل المقت :

ـ سأقتله .

هزَّت رأسها معترضة :

ـ الكراهية ، والسعى للانتقام ، ليس لهما مكان ، فى أى جهاز مخابرات فى العالم(*) .

قال فى حدة :

ـ لن أتبع القواعد .

صمتت لحظة ، ثم غمغمت :

ـ لا يمكنك فعل هذا فى (مصر) .

تطلّع إليها :

ـ لن أفعله هناك إذن .

سألته فى اقتضاب :

ـ أين ؟!

تراجع فى مقعده ، ووضع الورقة على سطح مكتبه :

ـ هناك عملية ما ، ستخرجه من عرينه حتمًا .

غمغمت :

ـ قد تنتظر طويلًا .

أجاب فى صرامة :

ـ الوقت لا يهم .

صمتت لحظات ، تتطلّع إليه :

ـ وكيف ستفعلها ؟!

ثم استدركت فى حسم :

ـ لن تحظى بأى تعاون من الجهاز .

أجاب فى إصرار :

(*) حقيقة .

ـ ولن أنتظر ، أو أتوقَّع هذا .

تنهَّدت :

ـ هذا يعيدنا إذن ، إلى السؤال الأوَّل .

ومالت نحوه فى شدة :

ـ كيف ؟!

تطلَّع إليها لحظات :

ـ العالم لا تحكمه أجهزة المخابرات فحسب .

تمتمت :

ـ أتعنى أجهزة الأمن الداخلى ؟!

هزَّ رأسه نفيًا ، وهو يميل نحوها بدوره :

ـ والتنظيمات الإجرامية المنظمة .

تراجعت فى حركة حادة ، تمتلئ بالدهشة :

ـ هل ستستعين بهم ؟!

تراجع أيضًا فى حزم :

ـ سأستعين بالشيطان ، لو لزم الأمر .

ارتفع حاجباها ، واتسعت عيناها لحظة ، قبل أن تستعيد السيطرة على مشاعرها ، وتعود ملامحها إلى حالها ، وهى تتطلَّع إليه ...

كان من الواضح أن الأمر يسيطر على كيانه كثيرًا ...

وأنه لن يتراجع عنه أبدًا ...

مهما كانت الأسباب ...

مهما كانت ...

***

شعر (ناصر يوسـف) مدرِّب (أدهم) بانفعـال كبيـر ، يسـرى فى كيانه ، وهو يراقب اللاعبين الأربعة ، الذين أحاطوا (أدهم) فى الحلبة ، وحمل صوته بعضًا من هذا الانفعال ، وهو يقول :

_ أربعة خصـوم هذه المـرة يا (أدهـم) ... كلهم سيهاجمـونك فى وقـت واحد ... واجههم كما علمتك .

استعاد (أدهم) كلمات والده ، فى هذه اللحظة ...

ادرس خصومك ...

حدد قوتهم ومواقعهم ...

وضع خطتك ...

ثم هاجم ...

لابد وأن يتم هذا ، فى أقل من ثانية واحدة ...

وبإشارة من المدرب ، انقض اللاعبون الأربعة ، من كل اتجاه ...

ووثب (أدهم) إلى أعلى ...

وحاول استخدام أطرافه الأربعة ، فى آن واحد ...

ولكن جسده لم يستجب بالسرعة المناسبة ...

فاختل توازنه ...

وسقط ...

وبإشارة أخرى من (ناصر) ، توقَّف اللاعبون الأربعة عن هجومهم ...

ولكن (أدهم) لم ينهض ...

ظلَّ مستلقيًا على ظهره ، مغلق العينين ، يستعيد كلمات أبيه ...

« ما من إنسان ، يمكنه أن يكتسب مهارة كاملة ، دون جهد شاق ، ومواصلة للتدريب والتمرين ، دون كلل أو ملل ... وربما لسنوات ... »

« طاقات الجسد البشرى بلا حدود ، ولكنها لا تخرج وتعلن عن وجودها تلقائيًا ، إلا فى حالات نادرة تحتاج إلى كشف مقدارها ، ويجب أن تستفزها وتستفزها ، حتى تخضع لك ... »

« اتخذ أبطال سباق الحواجز مثلًا أعلى لك ... إنهم يعدون فى مسار طويل، كله حواجز تعترض طريقهم ، وكلما عبروا حاجزًا ، برز أمامهم آخر ، والرابح هو من لا يتوقف عند كل حاجز ، ومن يحتمل يعبر كل الحواجز ، ويبلغ نقطة الوصول فى النهاية ... » ...

ارتفع صوت المدرِّب فى هذه اللحظة :

ـ لا بأس يا (أدهم) ... سنعيد الكرّة بعد راحة قليلة ..

نهض (أدهم) فى حزم :

ـ لا داع ... سنعيدها فورًا .

أجابه فى صرامة :

ـ كلا .

وأشار إلى اللاعبين الأربعة بالانصراف ، ثم اتجه نحو (أدهم) :

ـ أعلم أن ما أطلبه منك صعب جدًا ، ويتجاوز حدود القدرات البشرية معتادة ، ولكنك لو نظرت إلى مهرِّج السيرك ؛ لأدركت أنه ، بالمران المتواصل، كنه دفع قدراته البشرية عدة خطوات إلى الأمام .

تمتم (أدهم) فى حذر :

ـ مهرِّج السيرك ؟!

أوما برأسه :

ـ ألم تشاهده ، فى بعض الأحيان ، وهو يسير على سلك رفيع ، ويلعب بثلاث كرات بين كفيه ، فى آن واحد ؟!... لو أنك طلبت منه أن يفعل هذا فى البداية ، لتصوَّر أنك مجنون ، ولكن بالتدريب والصبر والمران ، صار يفعلها يوميًا ، وعلى مرأى من حشد كبير أيضًا .

تطلّع إليه (أدهم) دون تعليق ، ولكن ملامحه شفَّت عن الفهم ، فتابع (ناصر) :

ـ أهم ما فى الرياضات القتالية ، بعد سرعة التفكير والاستجابة ، هو الثقة بالنفس ، فلو اهتزَّت ثقتك بنفسك ، أو تردَّدت لحظة واحدة ، سيدرك خصمك هذا ، ويخترق دفاعاتك ، فى تلك اللحظة ، ويوجِّه إليك ضربته .

غمغم (أدهم) :

ـ هكذا أخبرنى والدى قديمًا .

ربَّت عليه (ناصر) :

ـ والدك رجل عظيم .

رفع (أدهم) عينيه إليه :

ـ والآن ، هل نعيد الكرَّة ؟!

ابتسم (ناصر) :

ـ بالتأكيد .

وكان واثقًا ، وهو ينطقها ، أن هذه المرة ستكون أفضل ....

أفضل كثيرًا ...

***

« غير معقول ... »

نطقها (سيرجى كوربوف) فى صرامة باردة ، وهو يطالع تقارير الخبراء ، وقسم التحريات الداخلية :

ــ كيف تعجزون عن العثور على ذلك الشاب ؟!... المفترض أننا نحكم قبضتنا على الدولة كلها .

غمغم الضابط الواقف أمامه :

ــ ولكننا لا نستطيع تعقبه أيها الرفيق !!... لقد أطلقنا عيوننا فى كل صوب ، ولم تصلنا معلومات كافية ، على الرغم من هذا .

على الرغم من ملامح (سيرجى) الباردة القاسية ، بدا صوته مفعمًا بالغضب :

ــ ذلك الشاب بالغ البدانة ، ولا يجيد اللغة ، فكيف يمكن أن يختفى ، فى دولة مثل الاتحاد السوفيتى ؟!

غمغم الضابط :

ــ ليس بالغ البدانة الوحيد ... وعمومًا سنحاول بذل المزيد من الجهد .

تطلع إليه (سيرجى) لحظات ، بعينيه الضيقتين القاسيتين ، ثم نهض من خلف مكتبه ، واتجه إلى النافذة ، المطلّة على ساحة الكريملين(*):

ــ لم أر فى عمرى كله ، شابًا يجيد التزييف والتزوير ، مثل هذا الشاب ... فريق من الخبراء ، احتاج إلى أسبوعين كاملين ، لمعرفة كيف أمكنه صنع البطاقتين الزائفتين ، بمواد بسيطة للغاية ، وعلى نحو مقنع تمامًا... وما زلنا نجهل حتى من هو .

(*) الكريملين : كلمة روسية معناها (القلعة) أو (الحصن) ، وهو مركز (موسكو) القديم ، وهو محاط بسور طوله حوالى ثلاثة كيلومترات ، بارتفاع يقرب من العشرين مترًا .

غمغم الضابط :

ـ استجواب (يورى تشيكوف) ، لم يفد كثيرًا أيها الرفيق .

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثان :

ـ ربما خدعه أيضًا .

وصمت لحظات ، ثم أضاف فى صرامة :

ـ وربما لا .

ثم التفت إليه :

ـ أحضر (تشيكوف) .

غمغم الضابط :

ـ لقد استجوبناه جيدًا أيها الرفيق ، و ...

قاطعه فى صرامة قاسية ، مكررًا :

ـ أحضر (تشيكوف) .

امتقع وجه الضابط ، وأحنى رأسه مغمغمًا :

ـ أوامرك يا سيِّدى .

لم تمض عشر دقائق ، حتى كان (تشيكوف) يجلس متهالكًا أمام (سيرجى) ، وقد بدا أكثر نحولًا وذعرًا :

ـ ماذا تريد منى ، أيها الرفيق (كوربوف) ... لقد أخبرتكم كل ما أعرفه ، وأنتم تحتجزوننى منذ ثلاثة أشهر ، وستبور تجارتى ، و ...

قاطعه (سيرجى) فى صرامة وحشية :

ـ كل ما تعرفه ؟!

ثم انحنى يقبض على كفه ، ويلوى معصمه فى قسوة :

ـ أشك .

صرخ (تشيكوف) ، وشعر بآلام شديدة ، مع صوت قرقعة مخيفة فى معصمه .

فصاح :

ـ معصمى ... لقد كسرت معصمى أيها الرفيق .

أجابه فى برود :

ـ إنه معصمك الأيسر ... ما زال يمكنك العمل بالأيمن .

ثم أمسك معصمه الأيمن ، وصوته يزداد قسوة :

ـ إلا لو أصررت على الكذب .

صرخ (تشيكوف) ، فى ألم وارتياع :

ـ ما الذى تريده منى أيها الرفيق ؟!

مال نحوه فى شدة :

ـ هويته الحقيقية .

هتف منهارًا :

ـ لقد أخبرتكم ... خدعت مثلكم ، و ...

لوى (سيرجى) معصمه، على نحو مؤلم ، جعله يصرخ :

ـ (قدرى) ... اسمه (قدرى) .

التقى حاجبا (سيرجى) الكثان :

ـ (قدرى) !!... أى اسم هذا ؟!.

صرخ (تشيكوف) ، ومعصمه يؤلمه فى شدة :

ـ مصرى ... اسم مصرى .

حدق (سيرجى) فى وجهه لحظات ، ثم خفَّف ضغطه على معصمه :

ـ مصرى ؟! ... هو مصـرى !!... (رابينوفيتش كادروف) !!... واضـح أنـه شخصية عبثية أيضًا .

ثم جذب مقعدًا ، وجلس أمام (تشيكوف) مباشرة ، وأشعل واحدة من سجائره نفَّاذة الرائحة ، ونفث دخانها فى وجهه :

ـ وكنت تعلم من البداية أنه مصرى ؟!

غمغم (تشيكـوف) ، فـى صـوت كالبكـاء ، وهـو يمسـك معصمـه شبـه المكسور :

ـ إنه أبرع فنان عرفته ، فى حياتى كلها .

نفث (سيرجى) دخان سيجارته فى وجهه مرة أخرى :

ـ وكنت تعلم أن هذا مخالف للقانون .

بكى (تشيكوف) فعليًّا :

ـ إنه فنان مذهل .

تطلَّع إليه (سيرجى) لحظات ، قبل أن يسأل :

ـ هل كنت تعلم أيضًا ، بأمر البطاقتين الزائفتين ؟!

انتفض فى رعب :

ـ لا ... أقسم لك ... لا .

تراجع (سيرجى) فى مقعده ، وظل يتطلَّع إليه لحظات ، كما لو أنه يحاول سبر أغواره :

ـ هل جاء إلى متجرك مباشرة ، ينشد عملًا .

فى شبه انهيار ، غمغم :

ـ بل أتى به زبون قديم .

سأله فى قسوة :

ـ ما اسمه ؟!

انهار (تشيكوف) :

ـ (إيفان) ... اسمه (إيفان) .

سأله فى برود قاس :

ـ ولقب عائلته ؟!

أطلَّ الذعر من عين (تشيكوف) وصوته :

ـ أقسم لك أننى لم أسأله أبدًا .

لدقيقة كاملة ، ظلَّ (سيرجى) يتطلَّع إليـه فى صمت ، على نحو انهـار فيه قلب (تشيكوف) تمامًا ، قبل أن يسمعه يقول فى صرامة :

ـ ستصفه لخبراء القسم الفنى ... وبأدق التفاصيل .

انهار (تشيكوف) أكثر :

ـ سأفعل كل ما تأمر به، أيها الرفيق (كوربوف) ... سأفعل كل ما تأمر به .

ونفث (سيرجى) دخان سيجارته مرة أخيرة ، قبل أن يلقيها أرضًا ، ويسحقها بقدمه ، كما سحق إرادة (تشيكوف) ...

بمنتهى القسوة ...

***

رفـع (أحمـد) عينيـه إلى والده مبتسمًا ، عنـدما جلس أمام مكتبـه ، فبادله (صبرى) الابتسامة ، وهو يغمغم :

ـ هل تبلى حسنًا ، فى دراستك يا (أحمد) ؟!

أجابه فى ثقة :

ـ أبذل قصارى جهدى يا أبى .

داعب (صبرى) شعره :

ـ أنت متفوق دومًا .

ثم تردَّد لحظة ، قبل أن يسأل :

ـ وماذا عن أخيك (أدهم) .

ابتسم (أحمد) ، وهزَّ كتفيه :

ـ إنه لا يرسب .

غمغم (صبرى) :

ـ ولكنه ليس متفوقًا .

ابتسم (أحمد) :

ـ (أدهم) وأنا نختلف كثيرًا يا والدى ؛ فهو لا يقيم وزنًا للتفوُّق فى الدراسة ، وكل ما يعنيه هو النجاح فحسب .

ربَّت عليه (صبرى) :

ـ أما أنت ، فتسعى دومًا للتفوُّق .

صمت (أحمد) لحظات ، ثم هزَّ كتفيه :

ـ تعلم أن (أدهم) منشغل بأمور أخرى يا أبى .

تراجع (صبرى) فى مقعده ، وهو يتطلَّع إليه :

ـ هذا ما أتيت لرؤيتك بشأنه .

أطل التساؤل ، من عينى (أحمد) ، فتابع هو :

ـ ربما أولى (أدهم) الكثير من الاهتمام ، فى هذه المرحلة ، ولكن هذا لا يعنى أن حبى لأحدكما ، يفوق حبى للآخر .

مال (أحمد) نحوه :

ـ أنا أفهم يا أبى .

أشار بيده :

ـ لست أصطحب (أدهم) معى ، فى كل أسفارى ، من أجل المتعة فحسب ، بل كوسيلة للتدريب والتعليم .

أومأ (أحمد) برأسه :

ـ (أدهم) شرح لى هذا يا أبى ، أثناء ممارستنا لعبة الشطرنج .

ثم اتسعت ابتسامته :

ـ ولقد صار يجيدها كثيرًا .

تنهَّد (صبرى) :

ـ (أدهم) لديه استعداد خاص ، لبرنامج وضعته قبل مولدكما .

عاد يومئ برأسه :

ـ أعلم كل شىء عن هذا يا أبى .

غمغم فى دهشة :

ـ تعلمه ؟!... لم أتحدث إليكما أبدًا ، عن ذلك البرنامج !!

صمت (أحمد) لحظات :

ـ ولكننى أعلمه .

سأله بكل اهتمامه :

ـ كيف ؟!

ازدرد (أحمد) لعابه :

ـ أمى ـ رحمها الله ـ أخبرتنى .

تراجع (صبرى) مصعوقًا :

ـ أمك ؟!

شرد بصر (أحمد) :

ـ نعم ... أمى .

« لقد شرحت لك الأمر كله يا (أحمد) ... » ...

« أشكرك على هذا كثيرًا يا أمى ... » ...

« هذا البرنامج حلم حياة والدك ، وسبب وجوده ، ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يضع فى (أدهم) ، كل ما يحتاج إليه أبوك ... » ...

« أستطيع فهم هذا يا أمى ... »

« لا تتصوَّر أبدًا ، أن حب والدك لك ، يقل عن حبه لشقيقك ... إنه يحب كليكما بالقدر نفسه ، ولكنه برنامجه ... » ...

« اطمئنى يا أمى ... أنا أحب أبى ، وأقدِّر ما يفعله ويسعى إليه ... » ...

« ولا تشعر أبدًا أن شقيقك يحظى بأكثر مما تحظى به ... »

« أمى ... اطمئنى كثيرًا فى هذا الشأن ... (أدهم) شقيقى الوحيد ، وشقيقى الأصغر أيضًا ، وأنا أحبه كل الحب ، ولا يمكن أن أغار منه أبدًا ... »

تحسَّست وجهه فى حنان ، ومنحته ابتسامة كبيرة ...

« كم أتمنى أن يدوم هذا أبدًا ... كل منكما سيكون دومًا سندًا للآخر ... هو سيحميك ، وأنت سترعاه ... عدنى بهذا يا (أحمد) ...

« أعدك يا أمى ... أعدك ... »

« متى أخبرتك أمك بهذا ؟!... » ...

ألقى (صبرى) السؤال ، منتزعًا (أحمد) من ذكرياته ، فاعتدل فى اهتمام، مكتسبًا رصانة والده :

ـ قبل رحيلها بأقل من شهر واحد .

أغلق (صبرى) عينيه ، وشعر بتنهيدة حارة ، تنطلق فى أعماقه ، وهو يغمغم :

ـ إذن فأنت تدرك ... و تفهم .

ربّت (أحمد) على كفه :

ـ اطمئن يا أبى ... اطمئن .

لم يدر (أحمد) أبدًا ، كم بثت تلك الكلمات القليلة ، فى نفس أبيه من أمل ...

ومن ارتياح ...

بلا حدود ...

***

« ما هذا بالضبط ؟! ... » ...

نطق دون (كورليون) السؤال فى غضب ، جعل (ألبرتو) يهب فى توتر:

ـ ماذا يا دون ؟!

صاح به ، فى غضب صارم :

ـ ما الذى تلقّنه للصغيرة بالضبط .

غمغمت (كارولينا) الصغيرة :

ـ العم (ألبرتو) كان ...

قاطعها فى صرامة :

ـ (كارولينا) ... اذهبى إلى حجرتك .

ملامحها الطفولية شفت عن أن هذا لم يرق لها ، إلا أنها أطاعته دون مناقشة كما اعتادت ، وما إن انصرفت، حتى عاد يسأل (ألبرتو) فى غضب :

ـ ما الذى كنت تلقنه لها ؟!

أجابه (ألبرتو) فى توتر :

ـ ما يتعلّق بالعائلة ، وأعمالها ، وبأسماء العائلات الأخرى ، وزعمائها ، و ...

قاطعه فى حدة :

ـ وما شأنها بهذا ؟!

قلب كفيه :

ـ تصوّرت أنه ينبغى أن تعرف .

هتف به مستنكرًا :

ـ فى هذه السن الصغيرة ؟!

غمغم (ألبرتو) :

ـ إنه نفس السن ، الذى لقنت فيه (مايكل) الأمور نفسها .

هتف دون (كورليون) :

ـ كان صبيًّا ، وهى فتاة .

هزّ كتفيه :

ـ الزمن يتغيّر يا دون .

أشار بسبّابته فى صرامة :

- إلا بالنسبـة للنسـاء الإيطاليـات ... سيبقيـن دومًا مجـرَّد ربات بيوت ، متزوِّجات مطيعات ، لا شأن لهن بأمور العائلة .

أشاح بوجهه :

- المشكلة أن هذا ، داخل عائلتنا فقط يا دون ، أما خارج هذه الأسوار ، فالنساء ينافسن الرجال ، فى كل المجالات .

قال بكل صرامته :

- ليس فى عائلة (كورليون) .

همَّ (ألبرتو) بقـول شىء آخـر ، ولكن دون (كورليون) استوقفه ، بإشارة صارمة من يده :

- كفى حديثًا فى هذا الشأن ... أمور العمل لها الأولوية .

غمغم (ألبرتو) :

- كل شىء يسير على ما يرام يا دون ... إيرادات الكازينو تتزايد ، وأرباح المخدرات تضاعفت ، وتم دفـع كل رواتب رجـال الشرطة ، ورجالنا فى القضاء ومجلس النواب .

بدا دون (كورليون) راضيًا :

- عظيم ... عظيم .

ثم أشار بيده :

- أبلغ الرجال عنـد البوَّابة ، أننـى أنتظر زائرًا خاصًا ، سيصـل بعـد قليل ، ودعهم يسمحون له بالدخول ، بعد تفتيشه بالطبع .

غمغم (ألبرتو) :

- لقد وصل بالفعل يا دون .

نهض من مقعده :

ـ وأين هو ؟!

أشار إلى حجرة ، فى نهاية الصالة الواسعة :

ـ ينتظرك فى مكتبك .

اتجه دون (كورليون) إلى مكتبه مباشرة ، وما إن فتح بابه ، حتى هب ذلك الضيف واقفاً ، ومدَّ يده يصافحه فى احترام :

ـ تحياتى يا دون (كورليون) ... اسمى (جراهام) ... (دافيد جراهام) .

والتقى كفاهما ليتصافحا ...

على الشر ...

كل الشر .

***



الفصل الثامن

ارتفع حاجبا العمة (منال) فى دهشة ، ثم عادا ينعقدان فى حيرة ، وهى تنقل بصرها ، بين وجوه (صبرى) و (حسام) و (أدهم) ، قبل أن تهتف :

ـ أية لغة هذه ، التى تتحدثون بها ؟!

كان (حسام) أوّل من أجابها :

ـ العبرية .

عاد حاجباها يرتفعان بكل الدهشة والاستنكار :

ـ لغة اليهود ؟!

أشار (صبرى) بسبّابته فى حزم :

ـ الإسرائيليون ، وليس اليهود ... اليهودية ديانة ، يمكن أن يعتنقها أوروبى ، أو أمريكى ، أو حتى عربى ، بغض النظر عن اللغة ، التى يتحدث بها ، أما الإسرائيلية فهى جنسية من يقيم فى تلك البقعة المحتلة من الأرض .

هزّت رأسها فى قوة :

ـ فليكن ... لغة الإسرائيليين ... لماذا يتحدّث بها (أدهم) إذن ؟!

ابتسم (أدهم) فى رصانة ، لا تتفق مع سنوات عمره :

ـ إنها لغة يا عمتى ... مجرّد لغة ... مثلها مثل أية لغة أخرى أدرسها .

انعقد حاجباها :

ـ لم أعد أدرى كم لغة تدرسها ، ولم أعد أدرى حتى بأية لغة تتحدث ، ولكن العبرية ؟!... حسب معلوماتى ، لا يتحدّثها سوى عدد قليل من الناس ،

تطلع إليها (حسام) ، وهو يقول :

_ الواقع إنها لغة (إسرائيل) فحسب .

هتفت فى إصرار :

_ تقصد (فلسطين) المحتلة .

قال فى حزم :

_ (فلسطين) عربية ، تتحدث العربية ، ولكن (إسرائيل) عبرانية ، اتخذت من العبرية وسيلة ؛ لجمع كل المهاجرين إليها ، فى بوتقة واحدة .

جلست فى حيرة :

_ ماذا تعنى ؟!

تطلع (صبرى) إلى (أدهم) ، الذى انبرى قائلاً :

_ (إسرائيل) بلد مهاجرين ، ذات اتجاه دينى عرقى ، تستخدم الدين لجذب المهاجرين إليها ، ولأنهم من عدة جنسيات مختلفة ، ويدين كلهم باليهودية ، ولكل منهم لغة تختلف عن الآخر ، قرروا أن تكون اللغة الرسمية لهم هى العبرية القديمة ، التى لم يعد يتحدث بها سوى رجال الدين لديهم .

تابع (صبرى) مكملاً :

_ وبهذا يمتزج الكل ، بخلاف جنسياتهم ، فى لغة واحدة تجمعهم ، يتعلمها كل مهاجر ، أيا كانت جنسيته ، أو لغته الأصلية ، وتميز مجتمعهم ، فى الوقت ذاته(*) .

(*) حقيقة .

هزّت رأسها فى قوة :

ـ محاضرة تاريخية جميلة ، ولكنها لا تجيب سؤالى .

مال (أدهم) نحوها ، واحتوى كفها بين كفيه :

ـ عمتى ... من عرف لغة عدو ، اتق شره .

دمعت عيناها :

ـ وهل تنوى مواجهة ذلك العدو ؟!

هزّ كتفيه ، وابتسم فى هدوء :

ـ من يدرى ؟!

التقط (صبرى) نفسًا عميقًا ، وقال فى صرامة :

ـ تضخمين الأمر كثيرًا يا (منال) .

أمسك (حسام) بكفه :

ـ لا تقس عليها .

نهضت (منال) ، وهى تمسح دمعة ، انزلقت على وجنتها :

ـ لا بأس ... سأنصرف .

ثم أضافت فى صرامة مفاجئة :

ـ ولكن أخفضوا أصواتكم ... (أحمد) يستذكر دروسه .

تمتم (حسام) :

ـ سنفعل بالتأكيد .

انصـرفت فى خطـوات معتدة ، وراقبهـا الثلاثة ، حتى اختفت ، ثم التفت

(حسام) إلى (صبرى) معاتبًا :

ـ تقسو عليها كثيرًا .

تطلّع إليه (صبرى) لحظات ، ثم ابتسم :

ـ ربما تجد من يعوضها بحنانه .

أشاح (حسام) بوجهه :

ـ إنها تستحق هذا .

ابتسم (صبرى) ، وتبادل نظرة مع (أدهم) ، الذى أدار دفة الموضوع بعيدًا فى لباقة :

ـ ما موعد سفرنا إلى (روما) يا أبى ؟!

نطقها بالعبرية ، فتمتم (صبرى) :

ـ فى غضون أيام قليلة .

ثم مال نحوه :

ـ وستكون فرصة مثالية ؛ لتحسين لغتك الإيطالية ، واستكمال دروسك مع (مارشيللو) .

أجابه بالإيطالية هذه المرة :

ـ بالتأكيد .

نقل (حسام) بصره بينهما ، وقال :

ـ لديك موهبة عجيبة ، فى استيعاب اللغات يا (أدهم) .

اكتفى (أدهم) بابتسامة ، فى حين تمتم (صبرى) :

ـ هكذا يؤكد معلموه .

أومأ (حسام) برأسه :

ـ عظيم .

ثم تحوّلت لهجته إلى الجدية ، وهو يسأل :

ــ هل لديك جديد ، بشأن ذلك المصرى فى الاتحاد السوفيتى ؟!

صمت (صبرى) لحظة مفكرًا :

ــ ليس كثيرًا ... منذ أخبرنا أحد عيوننا فى (موسكو) ، بالجهد الذى يبذله الـ (كى جى بى) ؛ للبحث عن شاب مصرى ، يزيف الأوراق واللوحات الفنية ، ببراعة غير مسبوقة ، أطلقت كل عيوننا هناك خلفه .

تساءل (حسام) :

ــ وماذا وجدوا ؟!

حمل صوت (صبرى) رنة إعجاب :

ــ يقولون : إنه بدين إلى حد ملحوظ ، وعلى الرغم من هذا ، فهو مراوغ شديد البراعة ، وقدرته على تزييف الهويات غير طبيعية ، حتى أنه لديهم له ست هويات مزوَّرة ، بأسماء ومهن مختلفة ، من عدة بلدان هناك ، آخرها (موسكو) نفسها .

غمغم (حسام) مندهشًا :

ــ لهجتك توحى بأنه يروق لك .

هزَّ كتفيه :

ــ لقد راوغ الـ (كى جى بى) ، لأكثر من عام ، ولم يقع فى أيديهم بعد .

غمغم (أدهم) :

ــ رائع ... كم أرغب فى أن ألتقى به .

تطلَّع إليه (صبرى) لحظات :

ــ لو سارت الأمور ، كما أخطط لها ، فربما يحدث هذا قريبًا .

انعقد حاجبا (حسام) ، وهو يميل نحوه :

ـ ما الذى تخطط له يا (صبرى) ؟!

ابتسم فى غموض :

ـ كسر كل القواعد .

وصمت لحظة ، ثم التفت إليه ، مضيفًا :

ـ بلا استثناء .

ونقل (أدهم) بصره بين الرجلين فى صمت ...

وفى أعماقه ، شعر أن هذا الحديث ، قد يكون لبنة ، لتغيير كبير فى حياته ...

بل تغيير يمس حياته ...

كلها ...

***

« كم تشبيهين أمك ... »

قالتها (راشيل) ، وهى تداعب رأس الصغيرة (سونيا) ، التى رفعت عينيها إليها فى فضول :

ـ كنت تعرفين أمى ؟!

أومأت برأسها إيجابًا :

ـ كانت زميلتى فى العمل، قبل أن تترك كل شىء خلفها ، وترحل مع ذلك الوغد البولندى .

زمجر (جراهام) :

ـ أخبرتك ألا تحدثينها عن ذلك يا (راشيل) .

أومأت (راشيل) برأسها موافقة :

ـ ولكنها تشبه أمها كثيرًا بالفعل .

غمغم فى ضيق :

ـ فى ملامحها فحسب .

تطلَّعت إلى جمال الصغيرة الصارخ :

ـ هذه الملامح ، يمكن أن تخدمها كثيرًا فى المستقبل .

أشاح بوجهه :

ـ أتعشَّم ألا يحدث هذا .

ابتسمت فى خبث ، وهى تمسحَ على شعر (سونيا) :

ـ كنت أتصوَّرك على دراية بقوة الجمال ، فى عالمنا هذا .

ثم أردفت ، وهى تمنح الصغيرة ابتسامة ودودًا :

ـ إنه أقوى أسلحتنا .

زمجر مرة أخرى :

ـ نتحدَّث عن طفلة .

رفعت عينيها إليه :

ـ لن تظل كذلك .

انعقد حاجباه فى حدة :

ـ أليس من الأفضل التركيز على العمل ؟!

منحت الصغيرة ابتسامة أخرى :

ـ لا بأس .

ثم أردفت فى سرعة ، وهى تعتدل فى مقعدها :

ـ فى الوقت الحالى .

رمقها بنظرة جافة ، قبل أن يشير بيده :

ـ هل يمكنك أن تخبرينى ، متى ستبدأ عملية (روما) ؟!

هزت كتفيها :

ـ تعلم أن هذا سرى .

تراجع فى مقعده فى صرامة :

ـ متى يا (راشيل) ؟!.

التقطت نفسًا عميقًا :

ـ إنها فى منتصفها .

داعب ذقنه :

ـ وهى من نفس طراز العمليات ، التى تجذب (الباشا) .

بدا عليه الشرود والتفكير ، فمالت نحوه :

ـ ما الذى تخطِّط له يا (دافيد) ؟!

تطلَّع إليها لحظات فى صمت :

ـ نفس ما أسعى إليه ، منذ سنوات .

اعتدلت :

ـ ألم تطرح تلك الفكرة عن ذهنك بعد ؟!

هزَّ رأسه فى قوة :

ـ مطلقًا .

انعقد حاجباها :

ـ تعلم أن هذا قد يكلفك الكثير .

هزّ كتفيه ، وقلب كفيه :

ـ وماذا لدى لأخسره ؟!

أجابته فى حزم مقتضب :

ـ الكثير .

مطّ شفتيه :

ـ لقد أقصونى عن العمل بالفعل .

ثم استدرك ، فى مقت واضح :

ـ بسببه .

هتفت :

ـ مؤقتًا ، ولكن ما ستقدم عليه ، يمكن أن يجعل هذا دائمًا .

قال فى حدة :

ـ من أدراك ؟!

ارتفع صوتها :

ـ نقلك من سفارة (نيودلهى) ، إلى سفارتنا فى (روما) ، دليل على أنهم يشعرون بأهميتك .

صاح :

ـ فى الخارجية ، وليس فى (الموساد) .

انتبه فى هذه اللحظة ، إلى أن (سونيا) الصغيـرة تراقبهما فى اهتمام ، مشوب ببعض القلق والخوف ، فخفض صوته فى سرعة :

ـ قلت لك : لم يعد لدى ما أخسره .

داعبت رأس (سونيا) ، ومنحتها ابتسامة جديدة ، وقد انتبهت إلى ما انتبه إليه ، وهى تغمغم :

ـ عندى معلومات أكيدة ، أنهم ينوون إعادتك للعمل ؛ للإفادة من خبراتك .

ثم احتضنت (سونيا) ، مضيفة :

ـ وأنت تفسد هذا .

صمت لحظات ، ثم غمغم :

ـ لن تربطنى بمصرعه أية صلة ، ولن أحاول الاستعانة ، بأى من إمكانيات الجهاز .

تطلّعت إليه لحظات :

ـ (دافيد) ... هل تتصوَّر أنك أذكى ، من (الموساد) كله ؟!

هزّ رأسه فى بطء :

ـ كلا بالطبع ... سيكون هذا أشبه بلاعب كرة قدم بارع ، تصوَّر أنه يستطيع هزيمة الفريق بأكمله وحده .

حمل صوتها الكثير من الصرامة :

ـ إنهم يعلمون بأمر زيارتك لدون (كورليون) .

بدا صوته صلبًا واثقًا :

ـ لقد أبلغتهم هذا بنفسى ، فطبيعة موقعى فى السفارة ، تستلزم التعامل مع كل القوى .

غمغمت مستنكرة :

ـ حتى (المافيا) ؟!

أجاب فى صرامة :

ـ كل ما يمكن أن يفيد (إسرائيل) .

صمتت لحظات ، محاولة تفهُّم موقفه ، قبل أن تقول :

ـ هل فكَّرت فى (سونيا) ؟!

أجاب فى حزم :

ـ بالتأكيد .

ثم أردف ، بعد لحظة قصيرة من الصمت :

ـ سأعهد بها إلى أكثر من أثق به .

أطلَّ من عينيها تساؤل، جعله يميل نحوها :

ـ أنت .

وعلى الرغم من أنها امرأة (موساد) ، اشتهرت بالقوة والقسوة ، ارتجف جسد (راشيل) تمامًا ...

وبمنتهى القوة ...

***

تهللت أسارير المدرِّب (ناصر) ، على نحو غير مسبوق ، وهو يستقبل (صبرى) ، فى مركز التدريب ، مهللًا فى حرارة :

ـ لقد فعلها .

غمغم (صبرى) فى حذر :

ـ فعلها ؟!

أمسك (ناصر) كتفيه ، وهو يقول فى حماس :

ـ (أدهم) فعلها ... استطاع استخدام أطرافه الأربعة فى آن واحد ، والقتال بسرعة خرافية .

بدا (صبرى) مبهورًا :

ـ دون أن يختل توازنه !!

هتف (ناصر) فى حرارة :

ـ قلت لك إنه سيفعلها .

قالها ، وهو يقود (صبرى) إلى قاعة التدريب ، حيث أحاط خمسة لاعبين بـ (أدهـم) ، الذى ظل هادئًا ، وهو يديـر بصـره حـوله فى سرعة ، ثـم رفـع (ناصر) سبّابته ...

وانقض الخمسة على هدفهم ...

وأمام عينى (صبرى) المندهشتين ، وثب (أدهـم) فى الهـواء ، وركل لاعبين فى وجهيهما بقدمه ، وقبضتاه تلكم آخرين ، فى جزء من الثانية ، ثم هبط على قدميـه ، وانحنى يلمس الأرض بأصابعـه ، ويدير قدمـه اليمنى فـى حركة أفقيـة قـوية ، أصابت سـاق اللاعـب الخـامس ، وأسقطتـه أرضًا ، فضغط (ناصر) زر ساعة توقيت ، هاتفًا :

ـ ثانيتان ... فعلتها فى ثانيتين يا (أدهم) .

غمغم (صبرى) :

ـ مدهش .

وازدرد لعابه ، قبل أن يستدرك :

ـ ولكنه لا يكفى .

التفت إليه (ناصر) فى دهشة ، فتابع فى حزم :

ـ سينهضون لمواصلة القتال .

أجابه (ناصر) :

ـ وهو أيضًا سيواصل القتال ، ولكنه ربح المفاجأة الأولى ، وهذا سيربكهم، وسيمنحه تفوقًا مبدئيًا .

رفع (صبرى) سبَّابته :

ـ مبدئيًا .

ثم استطرد فى حزم :

ـ فى ساحة المعركة الحقيقية ، يكون الخصوم أشبه بذئاب مفترسة جائعة، إما أن تسقطها ، أو ستواصل الهجوم على فريستها .

صمت (ناصر) لحظات :

ـ ابنك فعل ما لم يفعله أحد من قبل .

أومأ برأسه :

ـ أعلم هذا . .

ثم استطرد مبتسمًا :

ـ ولكننى أطمح فى المزيد .

كرَّر (ناصر) فى توتر :

ـ لقد كسر المستحيل !

أشار (صبرى) بسبَّابته :

ـ فى هـذا العمـر ... لو منحته عامين إضافيين ، سيصير هذا المستحيل حقيقة عادية ، وسيتجاوزها بكثير .

تطلَّع (ناصر) إليه لحظات بنظرة مبهورة ، ثم خفض عينيه ، وانخفض صوته :

ـ أنت على حق .

ثم رفع عينيه إليه :

ـ الأرقام القياسية تنكسر فى كل عام .

اتسعت ابتسامة (صبرى) :

ـ بالضبط .

فى هذه المرة ، عندما تطلَّع إليه (ناصر) ، شعر وكأنه يتطلَّع إلى شخص آخر تمامًا ...

شخص يمكن أن يلهمك ، لتواجه المستحيل ...

كل المستحيل ...

***

ضرب (سيرجى) سطح مكتبه فى حدة ، وهو يواجه ضابطه فى صرامة :

ـ ماذا دهاكم ؟!.. شاب أجنبى مميَّز ، تعجزون عن العثور عليه ، طوال كل هذا الوقت ؟!

أجابه ضابطه فى توتر :

ـ لقد فعلنا كل ما بوسعنا ، أيها الرفيق الكابتن ، ولكن ذلك الشاب ، على الرغم من بدانته ، أشبه بالزئبق ، كلما تصوَّرت أنك قد أحكمت قبضتك عليـه ، تجده قد أفلت من بين أصابعك .

قال (سيرجى) فى قسوة :

ـ لم تقوموا بعملكم كما ينبغى .

هتف الضابط :

ـ على العكس أيها الرفيـق ... لقد وزعت نشـرة بأوصافه ، وطلبت من كل دورية ، فـى الاتحـاد السوفيتـى كله ، أن تبحث عنـه ، وأخبرتهـم أن هـذا له الأولوية المطلقة .

تراجع (سيرجى) فى مقعده فى صرامة :

ـ وعلى الرغم من هذا فلم تجدوه .

حاول الضابط أن يتماسك :

ـ وجدنا أكثر من عشرين هوية زائفة ، تركها خلفه ، وأخبرنا الشهود أنه تارة أبكم ، وتارة أخرى معاق ، وثالثة ضرير ، ورابعة متخلِّف ذهنيًا .

هتف (سيرجى) مستنكرًا :

ـ متخلِّف ذهنيًا ؟!... متخلِّف ذهنيًا ، ويفعل بكم كل هذا ؟!... هل تدرك ما يعنيه قولك ؟!.

غمغم الضابط :

ـ ليس كذلك ، ولكنه يتظاهر أنه كذلك أيها الرفيق ... لقد أفلت من آخر كمين ؛ لأنه كان يلعب دور قعيد ، على مقعد متحرك .

ضرب (سيرجى) سطح مكتبه مرة أخرى :

ـ وأشفق عليه رجالك ، وتركوه .

زفر الضابط :

ـ أوراقه بدت لهم سليمة تمامًا .

غمغم (سيرجى) :

ـ هكذا تبدو دومًا .

تابع الضابط :

ـ وكانت تقول إنه فى السبعين .

هتف مستنكرًا :

ـ السبعين ؟!... لا تقل لى إنه يجيد التنكُّر أيضًا .

هزّ الضابط رأسه نفيًا :

ـ لقد رسم بعض التجاعيد العميقة على وجهه .

وازدرد لعابه فى صعوبة ، قبل أن يكمل :

ـ ولقد بدت طبيعية للغاية .

فى هذه المرة لم يثر (سيرجى) أو يغضب ...

فقط تراجع فى مقعده ، وتطلّع إلى الضابط طويلًا ...

من الواضح أنه يبذل قصارى جهده ...

ولكن ذلك الشاب بارع ...

بارع بحق ...

وهذا سر رغبته ، فى العثور عليه ...

شاب كهذا ، له أصابع ذهبية ، قادرة على تقليد كل شىء وأى شىء ، وهو إضافة قوية ، لأى جهاز مخابرات فى العالم ...

إنه يصنع كل ما يصنعه ، بأدوات وخامات غاية فى البدائية ...

ولكن كل ما يصنعه يبدو حقيقيًا ...

إلى حد مذهل ...

فماذا لو تم تزويده ، بكل إمكانيات جهاز مخابرات ؟!

ماذا ؟! ...

« أعلن حالة الطوارئ ... » ...

قالها بكل الحزم ، على نحو جعل الضابط يتطلّع إليه بكل دهشته ، قبل أن يغمغم ، فى صوت مرتجف :

ـ حالة الطوارئ ؟!

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثان بكل صرامة :

ـ أأنت مصاب بضعف فى السمع ؟!

ارتجف صوت الضابط أكثر :

ـ ولكن هذا يحتاج إلى أوامر عليا !!

أجابه بكل القسوة والصرامة :

ـ سأتحمل المسئولية .

تردَّد الضابط ، وارتجف صوته أكثر :

ـ ولكن أيها الرفيق الكابتن ...

قاطعه بكل الصرامة :

ـ هل تريد ما يثبت هذا ؟!

ثم سحب ورقة تحمل اسمه ، وخط عليها بضع كلمات ، ثم ذيَّلها بتوقيعه، فعها نحو الضابط ، مكرِّرًا فى قسوة وحشية :

ـ أعلن حالة الطوارئ .

وكان هذا يعنى أن الفخ قد أطبق فكيه على (قدرى) ... بمنتهى القسوة .

***



الفصل التاسع

« ماذا أضاف إليك (مارشيللو) هذه المرة ؟! . » ...

ألقى (صبرى) السؤال على (أدهم) ، الذى اعتدل فى رصانة :

ـ الكثير ... لقد أطلعنى على مادة جديدة لصنع الأقنعة ، شديدة الرقة ، ولها ملمس البشرة ، ويمكن تشكيلها فى سرعة ، وكيفية صنع قفازات البصمات منها .

ابتسم (صبرى) ، وهو يسير معه ، نحو باب السفارة :

ـ وماذا عن (جيانو) ؟!

هزّ كتفيه :

ـ تدريبات تقليـد الأصوات تسيـر على ما يرام ، ولكنه يطلب أحيانًا بعض الأمور ، التى تبدو لى عجيبة .

سأله فى اهتمام :

ـ مثل ماذا ؟!

أشار بكفه :

ـ مثل تقليد صوته هو .

تطلّع إليه (صبرى) ، وهما يغادران إلى حديقة السفارة :

ـ وهل فعلتها ؟!

عاد يهزّ كتفيه :

ـ فى صعوبة .

ربّت على كتفه :

ـ كل شىء يبدأ هكذا .

ران عليهما الصمت لحظات ، وهما يعبران حديقة السفارة ، نحو بابها الخارجى ، ثم سأل (أدهم) :

ـ متى سنعود إلى (مصر) يا أبى ؟!

صمت (صبرى) لحظة :

ـ العملية توشك على نهايتها ، وفور أن تضع أوزارها ، سنعود على الفور .

وابتسم ، وهو يربِّت على كتفه مرة أخرى :

ـ وسيمنحك هذا المزيد من الوقت ، مع (مارشيللو) و (جيانو) .

كانا يعبران بوَّابة السفارة ، عندما لمح (أدهم) ذلك البريق ، على سطح المبنى المقابل ...

لمحه فى جزء من الثانية ...

وفى الجزء الثانى ، استوعبه ...

وفى الجزء الثالث ، دفع والده جانبًا ، وهو يهتف :

ـ احترس يا أبى .

وفى نفس اللحظة التى مال فيها جسد (صبرى) ، تجاوزت رصاصة قنَّاص رأسه ، وارتطمت بإطار بوَّابة السفارة ...

وعلى الفور ، اندفع حارسا السفارة ؛ لحماية (صبرى) ، الذى عاونته خبرته السابقة ، فى القوات الخاصة ، على التحرُّك فى سرعة ؛ لتفادى الرصاصة الثانية ، وأدار رأسه فيما حوله ، فى توتر شديد ، بحثًا عن (أدهم) ...

ولكن (أدهم) كان قد اختفى ...

تمامًا ...

وبكل توتره ، غمغم (صبرى) :

- أين ذهب ؟!... أين ؟!

أما ذلك القنّاص المحترف ، فما إن أدرك أنه أفلت هدفه ، حتى لملم بندقيته فى سرعة تليق بمحترف ، وفكّك أجزاءها ، وأعادها إلى حقيبته ، واتجه فى خطوات سريعة إلى باب السطح ...

وقبل أن يصل إليه ، انفتح الباب ، وظهر على عتبته (أدهم) ، يقول فى صرامة ، لم تبد متناسبة مع سنوات عمره :

- إلى أين ؟!

فى لحظة واحدة ، أفلت القنّاص حقيبته ، وسحب مسدسًا من حزامه ، و...

وعلى الرغم من سرعته كمحترف ، ومن أنه يرى (أدهم) كمجرّد شاب مغير ، أعماه حماسه ، فقبل أن يرتفع مسدسه ، أصابت قبضته ركلة قوية ، ألقت المسدس من يده بعيدًا ...

ولم يجد القنّاص حتى فرصة للدهشة ...

ففى اللحظة التالية ، تلقى وجهه ركلة ثانية ، وتلقّت معدته لكمة قوية ، جعلته ينحنى على نفسه ، فاستقبلته لكمة أخرى فى فكه ، أسقطته كالحجر على ظهره ...

وعلى الرغم من دوران رأسه ، وعدم صفاء ذهنه ، حاول القنّاص أن ينهض، وهو يهتف فى صعوبة :

- أنت مجرّد صبى .

تلقّى لكمة جديدة ، هشّمت أنفه ، وجعلت الدماء تتفجّر منه على وجهه فى نفس اللحظة ، التى وصل فيها حارسان من السفارة إلى السطح ، وسمع أحدهما يهتف :

ـ ارفعا أيديكما .

وهنا فقط ، اعتدل (أدهم) مغمغمًا :

ـ مجرّد صبى ... هه .

« كيف فعلتها ؟!. » ...

ألقى (صبرى) السؤال على ابنه ، فى دهشة حقيقية ، وسمعه يجيب :

ـ لقد لمحت بريق الرصاصة ، فتحرّكت فى سرعة ، ودون حسابات أو تفكير .. كان تصرفًا غريزيًا تمامًا .

غمغم (صبرى) ، وهو يتطلّع إليه :

ـ غريزى ؟!... حقًا ؟!

التفت إليه (أدهم) فى قلق :

ـ أهذا خطأ ؟!

هزّ (صبرى) رأسه فى بطء :

ـ على العكس .

وتنهّد فى عمق :

ـ عندما تصبح غريزتك متجهة ، نحو الفعل الصحيح ، دون تفكير أو حسابات ، فهذا هو النجاح الكامل .

وتنهّد مرة أخرى ، وسأل :

ـ ولكن ماذا عن مطاردتك لذلك القنّاص ؟!... ألم تكن فى هذا مخاطرة كبيرة على حياتك ؟!.

غمغم :

ـ ربما .

قال فى صرامة :

ـ لا يوجد ربما .

بدا مزيج من الدهشة والقلق على (أدهم) ، فتابع (صبرى) ، محاولًا بث أكبر قدر من الرصانة والهدوء إلى صوته ولهجته :

ـ اسمع يا (أدهم) ... أكبر نقطة تفوُّق ، يمكن أن تميِّزك عن خصومك وأعدائك ، هى عقلك لا عضلاتك ... وأسوأ أمر ، يمكن أن يوقع بك ، هو أن تترك نفسك لانفعالاتك واندفاعك .

سأله فى اهتمام :

ـ وماذا عن حماسى ؟!

ابتسم :

ـ الحماس هو صورة من صور الانفعال والاندفاع ، وهما أسوأ عاملين ، يمكن أن يكتسبهما شخص ما ، فبهذا لا يحتاج خصمه إلا لإثارة انفعاله ، حتى يستغل اندفاعه ؛ لإسقاطه فى الفخ ، الذى أعدَّه له .

التقط (أدهم) نفسًا عميقًا :

ـ فهمت .

ربَّت عليه (صبرى) :

ـ تعلَّم السيطرة على انفعالاتك ، أيًا كانت الظروف ، أو حتى الخطوب المحيطة بك ، ودع هذا لأعدائك ، واسع دومًا لاستثارة انفعالاتهم ؛ ليقوموا بالضبط ، بما تريد منهم أن يقوموا به .

استوعب (أدهم) هذه الحكمة على الفور ، فرفع عينيه إلى والده :

ـ كيف يمكننى تعلُّم السيطرة على الانفعالات ؟!

اتسعت ابتسامة (صبرى) :

ـ ستبدأ هذا ، فور عودتنا إلى (مصر) ...

كانت نفسه تمتلئ بمزيج من الارتياح والفخر ...

فعلى الرغم من انفعال (أدهم) واندفاعه ، فقد خاض مغامرته الأولى الحقيقية ، فى العالم الواقعى ...

وخاضها بنجاح ...

كامل ...

***

احتقن وجه (جراهام) ، وهو يجلس أمام دون (كورليون) الغاضب :

ـ (مارك) واحد من أهم المصفيين لدينا ، وخطتك الحمقاء جعلتنا نخسره .

غمغم (جراهام) :

ـ لو أنه التزم بالخطة لـ ...

قاطعه فى حدة :

ـ أية خطة ؟!... طلبت منه قنص ذلك المصرى ، فور خروجه من سفارته، وهذا ما فعله .

هزَّ (جراهام) رأسه :

ـ لابد من حدوث خطأ ما ...

هتف :

(مارك) لا يخطئ .

رفع (جراهام) عينيه إليه :

_ لماذا أوقعوا به إذن ؟!

انعقد حاجبا دون :

_ سنعلم ، عندما يعود (ألبرتو) .

سأله (جراهام) فى اهتمام :

_ أهو ...

لم ينتظر دون (كورليون) ، حتى يتم سؤاله :

_ إنه الآن مع (مارك) ... كمحاميه .

« أى قول هذا يا (مارك) ؟!... » ...

ألقى (ألبرتو) السؤال ، فى دهشة حقيقية ، فأجابه (مارك) فى عصبية :

_ ما سمعته يا سنيور (مارك) ... أوقع بى شاب صغير ... صبى ... صبى كان يسير إلى جوار الهدف ، عندما ضغطت الزناد .

مال (ألبرتو) نحوه :

_ أتريد أن تقول : إن (مارك) العظيم ، أوقع به صبى ؟!

هزّ (مارك) رأسه فى قوة :

_ ليس مجرّد صبى عادى ... لم أر فى حياتى ، من يتحرّك بمثل سرعته ، ولا من يملك قوة ضرباته ودقتها .

غمغم (ألبرتو) مستنكرًا :

_ صبى ؟!

تطلّع إليه (مارك) فى عصبية :

ـ أنت لا تصدقنى .

زفر (ألبرتو) :

ـ إننى أحاول .

ثم مال نحوه :

ـ فعهدى بك مقاتلًا صنديدًا ، إلى جوار كونك قنّاصًا لا يخطئ هدفه .

مال نحوه (مارك) بدوره :

ـ أخبرتك أننى لم أر فى حياتى ، من فى مثل سرعته ، فى هذا العمر ـ لقد لمح بريق الرصاصة ، فدفع الهدف جانبًا ، قبل أن تصل إليه رصاصتى ، وعندما لملمت سلاحى ، فوجئت به أمامى على السطح ... لست أدرى حتى متى قطع الطريق ، ولا كيف صعد إلى هناك ، فى تلك الدقائق القليلة .

غمغم (ألبرتو) :

ـ ليست أوّل مرة ، يفاجئك فيها أحد .

اعتدل فى حزم متوتر :

ـ ولكنها أوّل مرة ، يفاجئنى فيها إله السرعة .

هزّ (ألبرتو) رأسه :

ـ أنت تبالغ .

تجاهل (مارك) تعليقه :

ـ سحبت مسدسى فى سرعة ، ولكنه تحرّك كالشيطان ، وكانت أطرافه كلها تضربنى ، فى آن واحد تقريبًا ، وكأننى أواجه فرقة كاملة ، وليس مجرّد صبى واحد .

تطلّع إليه (ألبرتو) لحظات :

_ أواثق من أنك لا تبالغ .

هتف (مارك) :

_ مطلقًا .

انعقد حاجبا (ألبرتو) فى شدة ، وهو يتطلّع إليه ، محاولًا سبر أغواره ، والتيقن من أنه لا يبالغ بالفعل ...

فلو أن هذا صحيح ، فسيعنى أنه على عالمه أن يعيد كل حساباته ...

كلها ...

ألف مرة ...

***

تحرك ذلك الضابط السوفيتى الشاب مع فريقه ، فى سرعة وخفة ، يحاصرون ذلك المبنى الكبير ، فى (لينتجراد) ، حيث أبلغ أحدهم عن وجود الشاب المصرى البدين هناك ...

كانوا يحكمون الحصار تمامًا هذه المرة ؛ لضمان ألا يفلت منهم الهدف أبدًا ...

وفى صرامة ، همس الضابط لرجاله :

_ القيادة تريده حيًا ... أفقدوه الوعى لو أردتم ، وأوسعوه ضربًا إن شئتم ، على أن يصل إلى (موسكو) حيًا .

أشار الرجال ، بما يعنى استيعابهم للأمر ، وأشار هو إلى فريق منهم ؛ لاقتحام المبنى ، من كل مخارجه ، ومنع أى مخلوق من الدخول إليه ، أو الخروج منه ...

وبينما يدور حول المبنى ؛ لتفقد النظام ، رأى رجل شرطة ، ممتلئ الجسم ، يغادر مخرجًا جانبيًا ، فاتجه إليه فى صرامة ، وهو يمسك مسدسه :

ـ من أنت يا هذا ؟!

رفع الشرطى سبّابته إلى شفتيه ، وكأنه يطلب منه الصمت ، ثم أشار إلى المخرج ، بما يوحى بأن الهدف داخله ، ولوّح بمسدسه ، على نحو جعل الضابط يتجه إلى المخرج ، ويتطلّع عبره فى حذر ، ومسدسه متحفّز ...

كان ذلك الشرطى البدين يتبعه ، فتقدّم فى حذر ، وهمس :

ـ أين هو بالضبط ؟!

لم يسمع جوابًا ، فكرّر ، فى شىء من العصبية :

ـ أين هو ؟!

مرة أخرى لم يسمع جوابًا ، فالتفت فى غضب :

ـ ألا تسمعنى ؟!

ارتفع حاجباه فى دهشة ، عندما انتبه إلى عدم وجود الشرطى خلفه ...

هنا فقط انتبه إلى الخدعة ، فاندفع يعود أدراجه ، وهو يهتف :

ـ إلىّ يا رجال .

أسرع إليه رجاله ، من كل صوب ، فهتف بهم :

ـ الهدف هنا ... يرتدى ثياب الشرطة .

انتشر الرجال فى المكان ، يبحثون ويفتشون ، ولكنهم لم يعثروا على الهدف ...

فقط معطف شرطى ، ومسدس ، ملقيان بين الأعشاب ...

وفى غضب شديد ، أمسك الضابط ذلك المسدس ، وهو يغمغم :

ـ ذلك الوغد .

فذلك المسدس ، الذى عثر عليه رجاله ، وسط الأعشاب ، لم يكن مسدسًا حقيقيًا ...

لقد كان مصنوعًا من خشب مصبوغ ...

وبدقة مدهشة ...

لقد خدعهم ذلك الشاب المحتال مرة أخرى ...

والرفيق (سيرجى كوربوف) لن يغفر هذا أبدًا ...

أبدًا ...

ماذا ستفعل الآن يا (قدرى) ؟! ...

إلى أين ستذهب ؟!...

لقد أحكموا الحصار هذه المرة ...

ولم يعد هناك من مهرب ...

فماذا ستفعل ؟!...

ارتكن (قدرى) إلى جوار منزل قديم ، وتلك الأفكار تدور فى رأسه ، ومعدته الخاوية تصرخ من الجوع ...

لقد أرهقه الفرار ، من أعقد نظام أمنى فى العالم ...

ولم يعد بوسعه الاستمرار ...

ولكن فكرة الاستسلام بدت له مخيفة ، إلى حد الرعب ...

الاستسلام للأمن ، فى دولة الاتحاد السوفيتى ، يبدو الموت إلى جوارها خيارًا ممتازًا ...

الاستسلام يعنى الاعتقال ، والتعذيب ، والنفى إلى (سيبريا) ، والموت فى قبر جليدى ، فى نهاية العالم ...

إلا إذا ...

قفزت الفكرة إلى رأسه بغتة ، وبدت له الخيار الأمثل ، على الرغم من صعوبته ...

بل الخيار الوحيد ...

الأكثر أمنًا ...

« أتذكر المزوِّر المصرى ، الذى تبحث عنه كل سلطات السوفيت ؟!... »

ألقى (حسام) السؤال على (صبرى) ، وهو يدلف إلى مكتبه ، فاعتدل (صبرى) ، وحمل صوته كل الاهتمام :

ـ بالطبع ... هل من أخبار جديدة بشأنه ؟!... »

جلس (حسام) أمامه ، وأشار بإبهامه :

ـ لقد لجأ إلى قنصليتنا فى (لينينجراد) .

اعتدل (صبرى) فى حماس :

ـ حقًا ؟!

أومأ (حسام) برأسه :

ـ قال : إنه مطارد من كل قوى الأمن ، فى كل أرجاء الاتحاد السوفيتى ، ولهذا فهو يحتمى بالقنصلية ، ويطلب العودة إلى (مصر) .

استمع إليه (صبرى) فى اهتمام ، ثم تراجع فى مقعده ، يداعب ذقنه :

ـ هل يعلم أنه مطلوب جنائيًا فى (مصر) ؛ بسبب تزييف أوراق دراسته ؟!

أومأ برأسه :

ـ نعم ، وهو مستعد لتلقى العقاب ، ويقول: إن السجن فى (مصر) ، أهون من الموت فى الجليد السوفيتى .

عاد (صبرى) يداعب ذقنه فى صمت ، فتابع :

ـ وهم يتساءلون فى القنصلية ، ماذا عليهم أن يفعلوا !

رفع (صبرى) عينيه إليه :

ـ أخبرهم أن يحسنوا معاملته ، وأن يبقوه لديهم ليومين أو ثلاثة ، والحرص على راحته ، ومنحه شعورًا بالأمان .

تساءل (حسام) فى حذر :

ـ فيم تفكِّر بالضبط يا (صبرى) ؟!

لم يجب سؤاله ، وهو يقول :

ـ أريد جوازى سفر دبلوماسيين ، أحدهما باسمى ، والآخر باسم (قدرى) .

تساءل (حسام) فى دهشة :

ـ هل ستمنحه جواز سفر دبلوماسيًا ؟!

التفت إليه (صبرى) مبتسمًا :

ـ بل سأمنحه ما هو أكثر من هذا .

لم يحاول (حسام) التعليق ، ولكن دهشته فى أعماقه ، تفجَّرت لتكسو كيانه كله ...

بلا استثناء ...

***

حمل صوت (أحمد) كل الفرح والسعادة ، وهو يندفع إلى منزله :

ـ عمتى ... عمتى ... لقد نجحت .

اندفعت نحوه (منال) فى فرحة :

ـ حصلت على الثانوية العامة ؟!

هتف :

ـ وبمجموع يؤهلنى للالتحاق بكلية الطب .

هتفت :

ـ حقًا .

ثم ضمته فى فرح وحنان :

ـ هذا حلمك منذ سنوات .

أومأ برأسه إيجابًا :

ـ وحلم أبى أيضًا ... كان يشجعنى عليه طوال الوقت .

ابتعدت عنه فى دهشة :

ـ (صبرى) شجعك ؟!... لم ألحظ هذا أبدًا .

ضحك :

ـ هكذا أبى ، يفعل الصواب دومًا ، فى هدوء وبلا ضجيج .

وربّت على كتفها :

ـ ما زلت أذكر حتى ذلك اليوم ؟!

« ولماذا كلية الطب ؟!... ألأنها صاحبة أكبر المجاميع ، أم أنك تسعى إليها بالتحديد ؟!... » ...

« إننى أسعى إليها ، منذ وفاة أمى يا أبى ؟!... » ...

« منذ وفاة أمك ؟!... » ...

_ لقد توفيت رحمها الله ، بورم فى المخ ، عجز الأطبار عن معالجته أو استئصاله ... » ...

« كان منتشرًا إلى حد كبير ، وفى مراحل متأخرة ... » ...

« أعلم هذا ... ولهذا السبب بالتحديد ، تمنيت دخول كلية الطب ، ودراسة جراحة المخ والأعصاب ... » ...

تطلّع إليه (صبرى) لحظات ، ثم ربَّت عليه فى حنان ...

« لو أن هذا هدفك بالفعل ، فعليك أن تبذل كل الجهد لبلوغه ... » ...

« هذا ما أفعله ، ولكننى لست أضمن النتائج ... » ...

« على المرء فقط أن يسعى ، وليس عليه بلوغ النجاح ... المهم ألا يألو جهدًا فى السعى ... »

« توافقنى على اختيارى إذن يا أبى ... » ...

ابتسم فى وجهه فى حنان ...

« لو أنك رغبت فى دخول معهد الباليه ، لناصرتك أيضًا ... المهم أن يكون الاختيار نابعًا منك ، ومعبرًا عن إرادتك الحرة ... »

« (صبرى) فعل هذا ... » ...

هتفت بها (منال) فى حيرة ، جعلت (أحمد) يمسك كتفيها ، ويتطلّع مباشرة إلى عينيها :

ـ كثير مما يفعله أبى ، يمضى فى هدوء ، دون أن يشعر به أحد .

غمغمت :

ـ أنت على حق .

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن تسأله فى فضول :

ـ وماذا عن (أدهم) ... هل يرغب فى الالتحـاق بكلية بعينها ، عندما يحصل على الثانوية العامة مثلك ؟!

هزَّ كتفيه :

ـ لم يخبرنى أبدًا ، ولكننى أستطيع التوقُّع مسبقًا فى سهولة .

تطلَّعت إليه بعينين متسائلتين ، فتابع فى حزم :

ـ الكلية الحربية .

ولسبب ما ، خفق قلبها فى عنف ...

منتهى العنف ...

***

« الأستاذ (قدرى) ؟!... » ...

رفع (قدرى) عينيه البائستين إلى (صبرى) ، الذى يقف أمامه ، متحدثًا فى هدوء ، مع ابتسامة مطمئنة ودود :

ـ أنا هو .

جذب (صبرى) مقعدًا ، وجلس إلى جواره :

ـ أتيت من (القاهرة) ، من أجلك خصيصًا .

شعر (قدرى) بمنتهى القلق :

ـ من (القاهرة) ؟!

حافظ (صبرى) على ابتسامته :

ـ هل تدرك أهميتك ، بالنسبة لنا ؟!

حمل صوته كل الدهشة :

ـ أهميتى ؟!... أنا ؟!

أخرج (صبرى) من جيبه ورقة ، تحمل ختمًا بارزًا ، يعود إلى سفارة دولة أوروبية ، وناولها له :

ـ هل يمكنك تقليد شىء كهذا ؟!

تطلّع (قدرى) إلى الورقة فى حذر :

ـ نعم ... يمكننى هذا .

أشار (صبرى) إلى الختم البارز :

ـ وماذا عن هذا ؟!

تحسّس (قدرى) الختم ، وغمغم :

ـ سيستغرق بعض الوقت .

ثم أكمل فى حسم :

ـ ولكنه ممكن ..

سأله (صبرى) فى هدوء :

ـ ما الذى تحتاج إليه من أدوات ؟!

تحسّس (قدرى) الختم البارز مرة أخرى :

ـ ألوان زيتية ، ومسمار معدنى ، وقلم ... ومطرقة .

غمغم (صبرى) :

ـ مطرقة ؟!

أشار (قدرى) بسبّابته :

ـ وعدسة مكبّرة .

ـ وكم تحتاج من الوقت ؟!

وبدلًا من أن يجيبه (قدرى) سأل :

ـ متى تحتاج إليها ؟!

أجابه فى حزم :

ـ بعد ساعة واحدة .

انعقد حاجبا (قدرى) ، وفحص الورقة ثانية فى اهتمام ، ثم رفع عينيه إليه :

ـ فى هذه الحالة ، يمكنك إضافة شىء آخر .

سأله فى اهتمام :

ـ وما هو ؟!

أجابه ، ولسانه يلعق شفتيه :

ـ شطيرة طازجة ، وكوب من الشاى .

تراجع (صبرى) مبتسمًا فى دهشة ، فتابع (قدرى) فى خجل :

ـ كل آلة تحتاج إلى الوقود ... أليس كذلك ؟!

« ما هذا بالضبط ؟!... »

ألقى القنصل المصرى السؤال على (صبرى) ، الذى أجابه فى اقتضاب :

ـ اختبار .

هزَّ القنصل كتفيه ، ثم أشار بيده :

ـ هل تعلم أن ذلك الختم ، الذى طلبت منه تقليده ، من أصعب وأعقد الأختام الديبلوماسية ، فى (أوروبا) كلها .

أومأ برأسه إيجابًا :

ـ أعلم هذا .

قال الرجل فى استنكار :

ـ ومنحته ساعة واحدة ؟!

التفت إليه (صبرى) فى هدوء :

ـ أليس اختبارًا .

كانت قد تبقّت خمس دقائق، على نهاية الساعة ، عندما فتح (قدرى) باب حجرته ، وهو يحمل الورقة آسفًا :

ـ معذرة ... لم أستطع تقليدها .

التقط القنصل الورقة منه :

ـ أخبرتك أن هذا أصعب وأعقد ختم ديبلوماسى ، فى (أوروبا) كلها .

ألقى (صبرى) نظرة على الورقة ، ثم التقطها من يد القنصل ، وتحسّس الختم البارز لحظة ، ثم رفع عينيه إلى (قدرى) فى رصانة :

ـ أين الورقة الأصلية ؟!

نظر إليه القنصل فى دهشة ، قبل أن ينقل نظرة دهشته إلى (قدرى) ، الذى غمغم :

ـ أية ورقة أصلية ؟!

ثم انفجر ضاحكًا فجأة ، وهو يمد يده إليهما بالورقة الأصلية :

ـ كيف كشفت أمرها ؟!

اختطف القنصل الورقة المقلّدة من يد (صبرى) يفحصها فى ذهول ، وهذا الأخير يجيب فى هدوء :

ـ الورقة نفسها أقل سمكًا .

هتف (قدرى) :

ـ علمت هذا من اللحظة الأولى ، لكن كان هذا هو المتاح .

هتف القنصل ذاهلًا :

ـ ولكن كيف فعلتها ؟!... كيف نسخت الختم البارز ، بهذا الإتقان الشديد ؟!

هزّ (قدرى) كتفيه المكتظين :

ـ استخدمت المسمار والمطرقة ، فى دقة وحذر .

ترك (صبرى) القنصل يفحص الورقتين ، ويقارن بينهما فى ذهول ، وجذب (قدرى) إلى حجرته :

ـ تعال يا (قدرى) .

أغلق الباب خلفهما ، ثم التفت إليه :

ـ ما فعلته كان بارعًا للغاية .

غمغم (قدرى) :

ـ أشكرك .

جلس (صبرى) على مقعد قريب :

ـ هل تعلم ماذا ينتظرك فى (مصر) يا (قدرى) ؟!

بدا الأسى عليه :

ـ حكم بالسجن .

أومأ (صبرى) برأسه :

ـ من ثلاث إلى خمس سنوات ... وهى جريمة مخلّة بالشرف ، وهذا يعنى ضياع مستقبلك تمامًا .

أجابه بمنتهى الأسى :

ـ أعلم هذا .

تطلّع إليه (صبرى) :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فقد لجأت إلى قنصليتنا ، تنشد الحماية ، وتطلب العودة إلى (مصر) .

غمغم (قدرى) ، وهو يكاد يبكى :

ـ السجن لخمس سنوات فى وطنى ، أشبـه بنزهة برية ، مقارنة بالسجن السوفيتى ، والنفى إلى (سيبريا) .

تطلّع إليه (صبرى) لحظات أخرى :

ـ وماذا لو كانت هناك فرصة ؛ لإسقاط كل التهم ، والحصـول على عمل ممتاز ، فى الوقت ذاته .

اتسعت عينا (قدرى) وهو يتطلّع إليه :

ـ أهذه مزحة ، أم حلم بعيد المنال ؟!

ابتسم (صبرى) :

ـ هذا عرض .

هتف فى لهفة :

ـ أوافق بالطبع .

سأله :

ـ دون أن تعلم لحساب من ستعمل .

أجابه فى سرعة :

ـ تقديمك العرض لى هنا ، يعنى أنه عرض رسمى ، وأننى سأعمل لحساب جهة محترمة للغاية ... وهذا أشبه بالحلم .

مد (صبرى) كفه إليه :

ـ مرحبًا بك فى المخابرات المصرية يا (قدرى) .

بُهِتَ (قدرى) ، وهو يمد كفه إليه فى تردُّد ...

فعلى الرغم من كل توقعاته ، كان العمل لحساب المخابرات المصرية ، بالنسبة إليه ، ليس حلمًا فحسب ...

بل معجزة ...

معجزة مذهلة ...

إلى أقصى حد .

***



الفصل العاشر

هزّ (توفيق) رأسه ، وهو يتابع ابنته (منى) ، التى تلعب مع أبناء عمومتها ، فى حديقة النادى ، فسألته زوجته مبتسمة :

ـ ماذا هناك ؟!

غمغم :

ـ لا شىء .

مالت نحوه :

ـ (توفيق) ... أنا أعرفك جيدًا ، وأستطيع قراءة كل مشاعرك وأفكارك ، وحتى انفعالاتك ، دون أن تنطق بحرف .

تنهّد :

ـ إنها (منى) .

ألقت نظرة على ابنتها :

ـ ماذا بها ؟!... أراها سعيدة للغاية !!.

قال فى بطء :

ـ وهى تلعب مع أبناء عمومتها .

سألته فى حيرة :

ـ وماذا فى هذا ؟!

التفت إليها :

ـ هل لاحظت أنها تلعب دومًا مع ذكور ... أبناء عمومتها كلهم من الذكور ، وليس فى العائلة بنات فى مثل عمرها .

ابتسمت فى حنان :

ـ هل يقلقك هذا ؟!... إنهم مجرّد أطفال .

هزّ رأسه :

ـ ما يقلقنى هو نوعية ألعابهم ... انظرى إليها ... إنها تحمل مسدس مياه ، وتطاردهم مثلما يطاردونها .

غمغمت فى حنان :

ـ وهى بارعة .

هزّ كتفيه :

ـ بالتأكيد ، ولكن البنات فى مثل عمرها ، يلهون بعروس متكلمة ، أو دب من الفراء .

ربّتت على يده :

ـ ابنتك متميِّزة .

تطلع لحظات إلى (منى) ثم التفت إليها :

ـ عندما تسألين طفلة ، فى عمر (منى) ، عما تتمنى أن تكونه ، عندما تكبر ، ستخبرك أنها ترغب فى أن تكون طبيبة ، أو مهندسة ، أو حتى مذيعة ، أو ممثلة ، أو عارضة أزياء ... فهل تعلمين ماذا تريد (منى) ؟!

سألته فى اهتمام :

ـ ماذا ؟!

تنهّد :

ـ شرطية ، مثل عمها (فريد) .

تطلّعت إليه لحظات فى دهشة ، ثم انفجرت ضاحكة :

_ أحلام أطفال ... عندما تنضج سيتغيَّر هذا تمامًا .

غمغم :

_ أتعشَّم هذا ، فلا يمكننى أبدًا تصوُّر ابنتى الرقيقة ، وهى تطارد المجرمين ورجال العصابات ، وتواجه الخطر ، فى كل لحظة من حياتها .

ابتسمت ، وهى تهزُّ كتفيها :

_ لا أحد يمكنه أن يتوقَّع ، ما يخبئه له القدر .

بالفعل ...

لا أحد يمكنه أن يتوقَّع ما يخبئه القدر له ، أو لابنته ...

فلو علم القبطان (توفيق) ، بما سيئول إليـه حال ابنته (منى) ، لهوى قلبه بين قدميه كالحجر ...

أو أشد ثقلًا ...

ألف مرة ...

***

« سفارتنا فى (لندن) ؟!... » ...

حمل صوت (صبرى) كل دهشته ، وهو يردِّد العبارة ، فأومأ المدير برأسه فى حزم :

ـ إنه انتداب مؤقت لعام واحد ، وبعدها ستعود إلى مكتبك يا (صبرى) .

غمغم (صبرى) :

ـ كنت أفضِّل العمل الميدانى ، يا سيادة الوزير .

ابتسم الوزير :

ـ لن يختلف هذا هناك يا (صبرى) .

ثم مال نحوه :

ـ المستشار العسكرى ، فى كل سفاراتنا ، هو من يقوم بعمـل المخابرات هناك ، وهذا يعنى أنه سيمارس عملًا مخابراتيًّا ميدانيًّا طوال الوقت .

غمغم (صبرى) :

ـ إلى جوار طن ، من الأعمال الورقية المكتبية .

تراجع المدير فى مقعده :

ـ سيفيدك هذا كثيرًا .

تساءل (صبرى) :

ـ هل لى حق الاختيار ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ كلا .

التقط (صبرى) نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول :

ـ فى هذه الحالة ، ليس أمامى سوى أن أسأل : متى سأتسلم عملى هناك .

قلّب المدير بعض الأوراق أمامه :

ـ وفقًا لما أمامى ، تقدّم ابنك (أدهم) بأوراقه إلى الكلية الحربية ، واجتاز كل الاختبارات .

غمغم :

ـ ولكن النتيجة لم تُعلن بعد .

أجابه المدير فى حزم :

ـ عقب إعلان النتيجة بأسبوع واحـد ، ستتسلـَّم عملك ، فى سفارتنا فى (لندن) .

شد قامته :

ـ أوامرك يا سيادة الوزير .

شيء ما فى أعماقه ، لم يكن يشعر بالارتياح للفكرة ، وهو يغادر مكتب المدير ...

ففى أعمق أعماقه ، شعر بأن هذا الانتقال سيبدل حياته كلها ...

أو ربما يكون النهاية ...

نهاية عمله ...

أو حياته ...

« لماذا توصينى بهذا يا (صبرى) ؟!... » ...

ألقى (حسام) السؤال فى حيرة ، وهو يتطلّع إلى (صبرى) :

ـ إنه نقل مؤقّت ... انتداب لمدة عام واحد ، وبعدها ستعود إلى هنا ، وربما ينتظرك منصب أرفع عندئذ .

بدا صوت (صبرى) حازمًا صارمًا :

ـ بغض النظر ، عما يخبئه لنا القدر ، أريدك أن تعدنى ، بأنه إذا ما أصابنى مكروه ، فستكمل ما بدأته أنا مع (أدهم) .

تنهّد (حسام) :

ـ فليكن ... أعدك، لو أن هذا يريحك .

أسبل (صبرى) عينيه ، وتراجع فى مقعده :

ـ لقد أراحتنى بالفعل .

ابتسم (حسام) متعاطفًا :

ـ أطال الله فى عمرك يا (صبرى) ... ولكن اطمئن ... فى الكلية الحربية، سيصقلون مواهب (أدهم) كثيرًا .

غمغم (صبرى) :

ـ أنا واثق من هذا .

ثم فتح عينيه ، واعتدل :

ـ ولكنه سيبقى فى حاجة إليك ، فالمهارات التى سيكتسبها ويصقلها هناك، مجرَّد جزء من برنامجه .

ربَّت على كتفه :

ـ اطمئن يا (صبرى) ... اطمئن ... الله سبحانه وتعالى ، لم يمنح ابنك كل هذه المواهب ، لتذوب وسط الحياة فحسب ... كل شىء فى الوجود له سبب، وكل ما يكتسبه المرء ، له دور ينتظره فى الحياة .

عاد (صبرى) يغلق عينيه :

ـ من يدرى ، ماذا سيكون الدور الذى ينتظره .

أجابه (حسام) فى حزم :

ـ نفس ما تنبأت به زوجتك رحمها الله ، قبيل رحيلها .

وحمل صوته رنة عجيبة ، وهو يضيف :

ـ إنه دور عظيم ... للغاية .

فى ذلك اليوم ، وعلى الرغم من كل طموحاتهما ، لم يدركا أن الدور ، الذى يدَّخره القدر لـ (أدهم) ، يفوق كل هذا ...

ألف ألف مرة ...

***

« لقد ترك الخدمة فى المخابرات المصرية ... »

قالتها (راشيل) ، وهى تشير إلى صورة (صبرى) ، المعلّقة على جدار مكتب (جراهام) فى (الموساد) ، فغمغم هذا الأخير فى مقت :

ـ هراء .

قالت فى حزم :

ـ لدينا تأكيد ، من مصدرين مختلفين بهذا(*).

التفت إليها فى صرامة :

ـ رجال المخابرات فى (مصر) ، لا يعتزلون العمل أبدًا ، ومهما كانت مواقعهم ، يظلون فى أعماقهم رجال مخابرات .

التقى حاجباها :

ـ لم يعد يواجهنا فى الميدان على الأقل .

حمل صوته كل المقت :

ـ هذا لا يصنع فارقًا .

أمسكت ذراعه :

ـ (دافيد) ... أنت تخالف كل ما تعلمناه ، منذ التحقنا بهذا المكان ... لقد حوّلت مشكلة عمل ، إلى أمر شخصى ، وهذا مرفوض تمامًا .

غمغم :

ـ أنت على حق .

ثم استطرد فى حدة :

(*) تحتم قواعد عمل المخابرات ، عدم اعتبار أية معلومة يقينية ، إلا لو جاءت من مصدرين مختلفين، أو كانت مؤيدة بوثيقة إثبات ، مسموعة أو مرئية .

_ لقد صار أمرًا شخصيًا .

جذبته مرة أخرى من ذراعه :

_ وأنت تخاطر بمستقبلك كله من أجل هذا ؟!

هزّ رأسه :

_ لا أستطيع المقاومة .

لجأت إلى محاولة أخيرة :

_ وماذا عن (سونيا) ؟!... هل ستخاطر بمستقبلها أيضًا ؟!

تطلّع إليها :

_ مستقبل (سونيا) بين يديك أنت ... إنها متعلقة بك ، بأكثر من تعلُّقها بأى إنسان آخر .

غمغمت :

_ إنها تحلم بالالتحاق بالجهاز ، مثلى ومثلك ، عندما تكبر .

تمتم :

_ أعلم هذا .

استطردت :

_ وما تسعى لفعله ، قد يفسد عليها حلمها هذا .

شدّ قامته :

_ لو أمكنهم إثبات هذا .

تطلّعت إليه لحظات ، فى يأس صامت ، قبل أن تلوِّح بيدها :

_ يبدو أنه لا فائدة .

غمغم بكل الصرامة :

ـ هذا صحيح .

لوحت بيدها مرة أخرى ، واستدارت تغادر المكان، قبل أن يستوقفها :

ـ (راشيل) ... علمت من (سونيا) ، أنك تعلمينها ، كيف تكون جميلة وجذابة .

التفتت إليه فى حزم :

ـ وبلا عواطف أيضًا ... هذا سيكون أقوى أسلحتها فى المستقبل .

انعقد حاجباه :

ـ لن يروق لى أن تكون ابنتى الصغيرة هكذا .

هتفت فى صرامة :

ـ لن تظل صغيرة إلى الأبد ... ألم تر ماذا فعل (الباشا) بابنه ؟!... الشاب كان فى الخامسة أو السادسة عشرة ، عندما أوقع بـ (مارك) ... حتى (دزرائيلى) بهره هذا ، ودفعه إلى إرسال توأميه ؛ لتلقّى تدريبات فائقة ، فى (طوكيو) .

قال فى عصبية :

ـ ولكنها فتاة .

بدت شديدة الصرامة :

ـ ولهذا لابد وأن تمتلك نوعًا آخر من القوة .

وبدت كنمرة شرسة ، مع استدراكتها :

ـ قوة الأنثى .

صمت لحظات ، وهو يدير الأمر فى رأسه ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ افعلى ما شئت .

ثم أدار عينيه ، إلى صورة (صبرى) :

ـ هل يمكنك تخيُّل شكل المواجهة ، لو وضعها القدر يومًا ، فى صراع مباشر ، مع ابن (صبرى) هذا ؟!...

رفعت رأسها فى اعتداد :

ـ ستنتصر .

ثم استدارت ، وغادرت مكتبه ، فعاد يرفع عينيه ، إلى صورة (صبرى) :

ـ كثيرة التفاؤل والخيال أنت يا (راشيل) ، ولكن الصورة لديك لم تكتمل ، فربما لا تحدث المواجهة أبدًا ... من يدرى ؟!

وكان على حق ...

من يدرى ؟!...

من ؟!....

***

ارتفع رنين الهاتف ، فى منزل (صبرى) ، فأسرعت العمة (منال) تلتقطه فى لهفة :

ـ (صبرى) ... أهو أنت ؟!.

جاءها صوت شقيقها الوحيد ، عبر أسلاك الهاتف :

ـ نعم هو أنا ... ماذا توقَّعت ؟!

كان يبدو مرحًا ، ولكنها أجابته فى لوعة :

ـ رجوتك أن تتصل بى ، فور وصولك (لندن) ، وكنت أنتظر الاتصال فى لهفة ...

ومسحت دمعة ، تسلَّلت عبر جفنيها :

ـ ثم أن رنين الهاتف ، كان لاتصال خارجى .

صمك :

ـ ولماذا تبدين شديدة التأثر هكذا ؟!... كل شىء على ما يرام ، وأنا أتحدّث إليك ، من مكتبى فى السفارة .

غمغمت :

ـ من الطبيعى أن أتأثر ... ستغيب فترة طويلة هذه المرة .

قال محاولًا تهدئتها :

ـ المفترض أن تكونى قد اعتدت غيابى ؛ فلقد كنت كثير الأسفار ، فى الآونة الأخيرة .

أجابته متأثرة :

ـ ولكنك كنت تعود إلى المنزل ، أما هذه المرة ...

لم تستطع إكمال عبارتها ، مع غصة سدَّت حلقها ، فتمتم هو :

ـ إنه عام واحد فحسب ، وستتخلله إجازات بالتأكيد ... وبالطبع كنت أتمنى ، لو اصطحبتكم جميعًا معى ، ولكن (أحمد) فى كليته ، و (أدهم) لا يمكنه الحصول على إجازة .

أكملت باكية :

ـ وأنا لابد أن أبقى لرعايتهما .

تمتم :

ـ بالضبط .

ثم استطرد فى سرعة :

ـ ولكنها مسألة وقت فحسب .

غمغمت :

ـ ساحاول الاعتياد .

التقط نفسًا عميقًا :

ـ على كل حال ، ابلغى سلامى لـ (أحمد) و (أدهم) إلى أن نلتقى بإذن الله .

أنهت المحادثة ، وقلبها ما زال يشعر بلوعة ، لسبب ما ...

كان يسافر ويعود كثيرًا ، ولكن شيئًا ما فى أعماقها ، كان يشعر بخوف مبهم ، فى هذه المرة بالذات ...

خوف شمل كيانها كله ...

ولم يترك منه ذرة ...

ذرة واحدة ...

« نحن سعداء بوجودك هنا ، يا سيادة العميد ... » ...

قالها سفير (مصر) فى (لندن) ، وهو يوقّع أوراق اعتماد (صبرى) ، ثم حملت شفتاه ابتسامة كبيرة :

ـ هذه المرحلة تحتاج بالفعل إلى رجل مثلك .

تمتم (صبرى) :

ـ أخدم الوطن ، فى أى موقع يا سيادة السفير .

ربّت الوزير ، على ملف فوق مكتبه :

ـ هكذا تؤكّد التقارير ، التى وصلتنى من (القاهرة) ، قبل وصولك .

ظهرت ابتسامة شاحبة ، على وجه (صبرى) ، وهو يغمغم :

ـ أنا مستعد للعمل فورًا يا سيّدى .

ابتسم السفير :

ـ ليس على الفور ... اليوم لديك دعوة للعشاء ، فى وزارة الخارجية البريطانية ، وغدًا تبدأ عملك بإذن الله .

سأله (صبرى) ، وهو ينهض :

ـ فى أية ساعة ؟!

ألقى السفير نظرة على ساعته :

ـ بعد ساعة ونصف من الآن ... المكان قريب ، وهذا يعنى أنه لديك وقت كاف للاستحمام ، واستبدال ثيابك .

كان الوقت أكثر من كاف فى الواقع ، لذا فبعد أقل من الساعة ، كان (صبرى) فى كامل هيئته يحمل أوراق اعتماده ، ويغادر مبنى السفارة ، متجهًا نحو السيارة ، التى تقف فى انتظاره ، عندما لمح بريقًا يتألق ، فوق بناية بعيدة ...

وكان هذا آخر ما رآه ...

على الإطلاق ...

***

كانت جنازة العميد (صبرى محمد المصرى) مهيبة بحق ...

ففور وصول الجثمان من (لندن) نقلته سيارة كبيرة ، فى نعش ملفوف بعلم (مصر) ، إلى ميدان التحرير ، حيث كان الكل فى انتظاره ، كبار رجال الدولة ، وكبار القادة ، وعدد من رجال المخابرات ، فى ثياب مدنية ، وعدد كبير من أقاربه وأصدقائه ...

وفى مقدِّمة كل هؤلاء ، سار (حسام) و (أدهم) و (أحمد) ، مع مندوب رياسة الجمهورية ، وعدد من الوزراء ...

ومع مهابة الجنازة ووقارها ، والنعش الملفوف بعلم (مصر) ، راح المواطنون ينضمون إليها ، فى صمت وخشوع ، وأغلبهم لا يعلمون حتى من هو صاحبها ..

كان يكفيهم أن النعش ملفوف بعلم (مصر) ...

ومع مرور الجنازة ، فى شوارع (مصر) ، راح المنضمون إليها يتزايدون ..

ويتزايدون ...

ويتزايدون ...

حتى لقد بدا وكأن (مصر) كلها ، تشيِّع الرجل إلى مثواه الأخير ...

رجل لم يدرك أغلب من شيَّعوه ، من المواطنين ، أنه أفنى حياته من أجلهم ...

وأنه عاش ومات من أجل (مصر) ...

وأمن (مصر) ...

وشعب (مصر) ...

وكما فى الجنازة ، واصل (أحمد) البكاء الحار فى العزاء ، فى حين بدا (أدهم) ثابتًا صلبًا ، وهو يستقبل المعزين ، وإلى جواره (أحمد) و(حسام) ، وعدد من رجال المخابرات ...

والعزاء نفسه ، لم يقل مهابة عن الجنازة ...

لقد اكتظَّت المنطقة كلها بمئات المعزين ، ممن عملوا مع (صبرى) أو عرفوه ...

ووسط العزاء ، مال (حسام) على أذن (أدهم) :

ـ (أدهم) .. لا تكبت مشاعرك يا بنى ... اترك العنان لانفعالاتك ، وابك إن أردت ، فلن يقلِّل هذا من شأنك .

ظل وجه (أدهم) صارمًا ، وهو يقول :

ـ لم يحن الوقت بعد يا عمى .

لم يشأ (حسام) أن يزيد الضغوط عليه ، فاكتفى بالصمت ، حتى انتهى العزاء ، وعاد ثلاثتهم إلى منزل (صبرى) ...

وهناك ، استقبلتهم (منال) ، وهى شبه منهارة ، من كثرة البكاء ، فاتجه إليها (حسام) يعزيها ، ويهمس فى أذنها :

ـ الأعمار بيد الله يا (منال) ... (صبرى) عاش بطلًا ومات بطلًا .

بدا بكاؤها متشنجًا :

ـ بل مات غيلة وغدرًا ... برصاصة قناص جبان ، و ...

وضع يده على فمها :

ـ أرجوك يا (منال) .

ثم شعر بالحرج ، فأبعد يده ، هامسًا :

ـ الولدان لن يحتملا المزيد من الضغط .

اختلست نظرة ، إلى (أدهم) و (أحمد) ، هامسة من وسط دموعها :

ـ أشعر بقلق شديد عليهما .

غمغم :

ـ مهما كان الأمر ، سيتجاوزانه بإذن الله .

بكت فى حرارة :

ـ يالهما من مسكينين !! ...أمهما رحلت عنهما ، وهما بعد صغيرين ، ثم فقدا والدهما ، قبل حتى أن ينهيا مرحلتهما الجامعية .

غمغم :

ـ إنهما ناضجان ، وسيتجاوزان المحنة بإذن الله .

اختلست نظرة أخرى إليهما فى مرارة :

ـ لم يعد لهما سواى .

التقط نفسًا عميقًا :

ـ وماذا عنى ؟!... أنا بمثابة عمهما .

ثم أضاف فى خفوت :

ـ ولقد أوصانى (صبرى) رحمه الله بهما .

رفعت عينيها إليه :

ـ ولكننى أخشى كثيرًا على (أدهم) ... أنت تعلم كم كان شديد التعلُّق بوالده ، وعلى الرغم من هذا ، فهو لم يذرف دمعة واحدة ، حتى هذه اللحظة .

غمغم :

ـ إنه صلب .

بكت :

ـ كتمان المشاعر داخله قد يؤذيه .

تطلّع لحظة إلى (أدهم) :

ـ دعينى أحاول .

اتجه نحو (أدهم) ، وربَّت على كتفه فى حنان ، وهو يهمس له :

ـ (أدهم) نحن الآن وحدنا يا ولدى .

التفت إليه بعينين متسائلتين ، فأضاف همسًا :

ـ يمكنك الآن أن تفرغ مشاعرك وانفعالاتك ، و لن يراك أحد .

غمغم (أدهم) :

ـ عمى .

تابع (حسام) فى اهتمام :

ـ ابك يا (أدهم) ... ابك ... والدك رحمه الله ـ يستحق أن تبكى من أجله ... لا تدفن انفعالاتك داخلك .

بدا (أدهم) صارمًا مشدودًا :

ـ أخبرتك من قبل يا عمى ... لم يحن الوقت بعد .

تراجع فى دهشة :

ـ أى وقت يا (أدهم) ؟!

أجابه فى حزم شديد :

ـ وقت البكاء .

سأله فى قلق :

ـ ماذا تعنى ؟!

اتجه إلى حجرته، وهو يقول فى صلابة :

ـ سلهم .

هتف به (حسام) :

ـ من هم ؟!

التفت إليه فى حزم :

ـ أهل الصعيد .

ودلف إلى حجرته ، وأغلق بابها خلفه ...

بكل إحكام .

***



الفصل الحادى عشر

التف (مايكل كورليون) ، مع عدد من رجاله ، حول مائدة اجتماعات ، فى حجرة صغيرة فى قبو قصر دون (كورليون) فى روما ، وبدا (مايكل) غاضبًا :

ـ إنه (جاك بانينى) ... ما زال يتحـدانا ، ويحاول فرض سيطـرته على أحد أكبر أحياء (روما) .

غمغم أحد رجاله :

ـ عائلة (بانينى) تسيطـر على (كابرى) ، منـذ سنـوات ، وكل منا يترك الآخر وشأنه !!

اعتدل (مايكل) فى صرامة :

ـ كان هذا قبل رحيل (فيدرو بانينى) الأب ، ولكن من الواضح أن (جاك) لديه طموحًا زائدًا .

قال رجل آخر :

ـ لو تركناه يعبث داخل (روما) ، ويفرض سيطرته ، ولو على بناية واحدة فيها ، ستطمع فينا باقى العائلات ، وبعد أعوام قليلة ، ستفقد عائلة (كورليون) نفوذها فى (روما) .

زفر (مايكل) :

ـ لابد من إيقاف (جاك بانينى) هذا .

أشار أحدهم بيده :

ـ ليس إيقافه فحسب ، بل تلقينه درسًا ، يمنع العائلات الأخرى ، من مجرَّد التفكير ، فى المساس بعائلة (كورليون) .

مال (مايكل) ، مرتكنًا على المائدة براحتيه :

ـ هل نقتله ؟!

تبادل الرجال نظرة صامتة ، قبل أن يغمغم أحدهم :

ـ إنه يحيط نفسه بجيش من المحترفين ، الذين يجيدون إطلاق النار ، وكل تحركاته فى سيارات مصفَّحة .

هزَّ (مايكل) رأسه فى عصبية :

ـ ألا توجد وسيلة للظفر به ؟!

فاجأهم صوت أنثوى طفولى يقول :

ـ ليس هذا صعبًا .

التفتوا جميعًا فى دهشة إلى (كارولينا) ، ذات السبع سنوات ، التى تجلس على بداية سلم القبو ، وهتف بها (مايكل) فى غضب :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟!

غمغمت ، وهى تداعب كرة مطاطية صغيرة :

ـ أنا هنا منذ البداية ، وسمعت كل ما قلتموه .

صاح بها :

ـ لا شأن لك بما نقوله هنا ... اذهبى إلى حجرتك ، وانسى كل شىء سمعتيه هنا .

تجاهلت صياحه تمامًا ، وهى تلعب بكرتها :

ـ (جاك بانينى) هذا له شقيق يدعى (روبرتو) ... أليس كذلك ؟!

بُهت لقولها ، وغمغم فى حذر :

ـ من أين علمت هذا ؟!

هزّت كتفيها الصغيرين :

ـ (ألبرتو) شرح لى كل شىء .

بدا صوته أكثر تخاذلًا ، وهو يغمغم :

ـ اذهبى إلى حجرتك .

مرة أخرى ، تجاهلته تمامًا :

ـ (روبرتو) هذا لا يهتم بشئون العائلة ، ويقضى معظم وقته فى اللهو ، بصحبة حارسين فحسب .

تبادل الرجال نظرة دهشة ، قبل أن يجرؤ أحدهم على السؤال :

ـ ثم ماذا ؟!

عادت تهز كتفيها الصغيرين :

ـ سيكون قتله سهلًا .

عاد الرجال يتبادلون نظرة قلق ، وبدا (مايكل) عصبيًّا :

ـ إلى حجرتك يا (كارولينا) .

مطّت شفتيها ، وهى تنهض :

ـ فى دار الجنائز ، يمكنكم حشو جثته بالمتفجرات ، وباستخدام جهاز تحكُّم عن بعد ، يمكنكم التخلُّص من (جاك بانينى) ، وكل رجاله ، أثناء مراسم الدفن ، وبضربة واحدة .

فغر الجميع أفواههم فى ذهول ، غير مصدقين أن يسمعوا هذا ، من طفلة فى مثل عمرها !!..

ولثوان ، انعقد لسان (مايكل) فى حلقه ، قبل أن يسعل ، ويغمغم فى صوت مبحوح :

ـ من أين أتيت بالفكرة ؟!

أجابته فى بساطة :

ـ من فيلم شاهدته .

« (كارولينا) قالت هذا ؟!... »

قالها دون (كورليـون) فى دهشـة ، فأجابه (مايكل) ، وحيـرته لم تذهب بعد :

ـ وفى بساطة تامة !!

صمت دون (كورليون) لحظات ، قبل أن يتمتم ، وكأنه يحدِّث نفسه :

ـ لقد أفلح أسلوب (ألبرتو) كثيرًا .

لم يفهم (مايكل) ما يعنيه ، ولكنه قال فى قلق :

ـ الخطة ممكنة التنفيذ ، ولكننى أخشى رد فعل عائلة (بانينى) .

غمغم دون (كورليون) :

ـ الذئاب ترتبك ، عند مصـرع زعيم القطيـع ، وتفقد القدرة على الهجـوم لبعض الوقت .

ثم التفت إليه فى حزم :

ـ وفى فترة الارتباك ، علينا أن نتحرّك بأقصى سرعة .

غمغم (مايكل) :

ـ هل تعنى ...

قبل أن يتم سؤاله ، اعتدل دون ، وقال بكل صرامة :

ـ ومن لم يقتله الانفجار ، سنتولّى نحن أمره ، وسنمحو عائلة (بانينى) من الوجود ... حتى النساء والأطفال .

ثم مال نحو (مايكل) ، وعيناه تلتمعان فى وحشية :

ـ وعندما نضم إلينا (كابرى) ، لن يجرؤ زعيم واحد ، من زعماء العائلات الأخرى ، على الوقوف فى مواجهتنا .

تمتم (مايكل) ، فى صوت مبحوح :

ـ كما تأمر يا أبى .

وعندما اعتدل دون (كورليون) ، ارتطمت عيناه بعينى (كارولينا) الصغيرة ، التى بدت وكأنها كانت تستمع فى شغف ...

وتتعلَّم ...

الكثير ...

***

« المهمة هذه المرة شبه مستحيلة يا (حسام) ... » ...

جلس (حسام) فى صمت أمام المدير ، الذى تابع فى اهتمام :

ـ لدينا عميل هام جدًا ، ألقى القبض عليه ، فى قلب (إسرائيل) ، ويحاولون استجوابه الآن ، فى قبو مبنى (الموساد) .

غمغم (حسام) :

ـ وهل لديه الكثير من المعلومات ؟!

أشار المدير بيده :

ـ ليس الكثير ، ولكن ما لديه يمكن أن يكشف العملية كلها .

اعتدل (حسام) :

ـ ما المطلوب بالضبط يا سيادة الوزير ؟!

تنهَّد الوزير :

إنقاذه ، وإخراجه من قبو (الموساد) ، وإعادته حيًا إلى (مصر) .

التقى حاجبا (حسام) :

ـ المهمة بالفعل شبه مستحيلة يا سيّدى .

تراجع المدير فى مقعده :

ـ القيادة تعلم هذا ، ولكنه أمر بالغ الأهمية والحيوية ... إنهم مستعدون لمنحك كل الإمكانيات المطلوبة ، وصلاحية انتقاء من تشاء ، من داخل الجهاز أو خارجه ، مع ميزانية مفتوحة .

غمغم (حسام) :

ـ ستكون مجزرة .

انعقد حاجبا المدير :

ـ مجزرة ؟!

هزّ (حسام) كتفيه :

ـ بالتأكيد يا سيادة الوزير ، فلو افترضنا إمكانية اقتحام مبنى (الموساد) ، بكل ما يحيط به ، من استحكامات أمنية ، ونظم مراقبة ، ونجحنا بالفعل فى الوصول إلى العميل وإنقاذه ، فكيف سنخرج به من (إسرائيل) ، مع الاستنفار الأمنى العام ، الذى سيعقب هذا حتمًا .

تطلّع إليه المدير :

ـ ألديك اقتراح آخر ؟!

أجاب فى سرعة :

ـ نعم يا سيادة الوزير .

ثم مال نحوه :

ـ رجل واحد .

تراجع المدير فى تساؤل ، فتابع :

ـ عملية من رجل واحد ، يمتلك كل المهارات مجتمعة ، وكأنه فرقة كاملة ... رجل يجيد التسلُّل ، والقتال ، والمراوغة ، والتنكُّر ، وتقمص الشخصيات .

أشار إليه المدير فى حزم :

ـ مهلًا يا (حسام) ... لسنا فى فيلم من أفلام الحركة الخرافية الأمريكية ، وليس لدينا رجل كهذا !!

هزَّ كتفيه مرة أخرى :

ـ قلت : إنه باستطاعتى الاستعانة بمن أشاء ، من داخل الجهاز أو خارجه .

حكَّ المدير ذقنه :

ـ وهل تعرف رجلًا كهذا ؟!

أومأ (حسام) برأسه :

ـ بل شابًا يا سيادة الوزير ... شاب اسمه (أدهم) ... (أدهم صبرى) .

والتقى حاجبا المدير ، وتضاعف قلقه مرات ...

ومرات ...

ومرات ...

***

مسح (أحمد) دموع عمته (منال) فى حنان ، وهو يحاول أن يبتسم :

ـ لماذا تبكين الآن ؟!

غمغمت فى أسى :

ـ تذكَّرت والدك رحمه الله ...

اعتدل :

ـ لقد مرَّ أكثر من عام على وفاته .

مسحت دموعها :

ـ أعلم ، ولكن صورة (أدهم) الأخيرة ، فى زى قوات الصاعقة ، أعادت إلىّ ذكراه .

تنهَّد :

ـ لن ننساه أبدًا .

عادت دموعها تنسال :

ـ هـو أيضًا كان ضابطًا فـى قـوات الصاعقـة ، قبل أن يلتحـق بجهـاز المخابرات .

غمغم :

ـ من شابه أباه فما ظلم .

حاولت أن تبتسم :

ـ مع (أدهم) ، الأصوب أن تقول : هذا الشبل من ذاك الأسد .

تنهَّد :

ـ صدقت .

سمع كلاهما صوت (أدهم) :

ـ هل تتحدَّثان عنى ؟!

التفتا إليه فى دهشة ، وأسرعت العمة (منال) نحوه :

ـ (أدهم) ... يالها من مفاجأة !!

وغمغم (أحمد) فى حذر :

ـ ولكن موعد إجازتك لم يحن بعد !!

هزَّ كتفيه :

ـ عمى (حسام) حصل لى على إجازة استثنائية .

احتضنته (منال) :

ـ ستقضى معنا بعض الوقت إذن ... عظيم ... سأعد لك كل الوجبات التى تحبها ، و ...

قاطعها بابتسامة ، وإشارة من يده :

ـ لا ... سأرحل بعد قليل .

بُهت الاثنان لقوله ، وغمغمت هى فى إحباط :

ـ ترحل ؟!... قلت إنها إجازة !!

حاول أن يحافظ على ابتسامته :

ـ إجازة للتدريب وليس الراحة .

تطلَّع إليه (أحمد) فى اهتمام مشوب بالقلق :

ـ إلى أين سترحل يا (أدهم) ؟

أجابه فى هدوء :

ـ إلى حيث التدريب .

ثم اتجه إلى حجرته ، وأشار إلى (أحمد) بيده :

ـ هل يمكننى أن أتحدَّث إليك قليلًا ؟!

غمغم (أحمد) ، وهو يلحق به :

ـ بالتأكيد .

نقلت (منال) بصرها وقلقها بينهما ، ثم غمغمت :

ـ ساعد لك شيئًا لتأكله ، قبل أن ترحل .

أغلق (أحمد) باب الحجرة خلفهما فى قلق :

ـ إلى أين ستذهب حقًا يا (أدهم) ؟!

بدأ (أدهم) فى استبدال ثيابه ، وهو يقول :

ـ دعك من هذا الآن ، فلدى أمر هام ، أريد استشارتك بشأنه .

جلس (أحمد) على طرف الفراش :

ـ أى أمر .

بدا (أدهم) جادًا :

ـ (حسام) يطلب يد عمتى (منال) .

ارتفع حاجبا (أحمد) فى دهشة :

ـ يطلب يدها ؟!... فى هذا العمر ؟!

واصل (أدهم) ارتداء ثيابه :

ـ كلاهما لم يتزوّج أبدًا ، والميل بينهما واضح ، فلم لا ؟!

بدا (أحمد) حائرًا :

ـ لست أدرى !... ربما لم أكن أتوقّع هذا .

جذب (أدهم) حقيبة صغيرة :

ـ بالنسبة لى ، لست أجد مانعًا ، ولكنك شقيقى الأكبر ، وموافقتك حتمية .

غمغم (أحمد) :

ـ المهم موافقتها هى .

أعد (أدهم) حقيبته فى سرعة ، ثم اعتدل :

ـ سترفض فى البداية ، من أجلنا ، ولهذا كانت موافقتنا ومباركتنا ضرورية ، لدفعها إلى الموافقة دون حرج .

وافقه (أحمد) بإيماءة صامتة ، فحمل (أدهم) حقيبته :
ـ أرجو أن تتم الأمر ، فور عودتى من تلك المهمة .
أمسك (أحمد) ذراعه فى قلق :
ـ (أدهم) ... أين ستذهب بالضبط ؟!
التفت إليه فى جدية :
ـ تعلم أننى لا أستطيع أن أخبرك .
أفلت (أحمد) ذراعه ، متمتمًا :
ـ حاول أن تعود سالمًا .
قالها ، وهو واثق ، أنه ما دام (أدهم) قد التزم الصمت ، ولم يخبره بوجهته ، فهذا يعنى أن مهمته تلك خطيرة ...
خطيرة للغاية ...

***

حاول (دافيد جراهام) أن يتماسك ، وهو يقف أمام رئيسه المباشر ، فى مبنى الموساد الرئيسى ، على الرغم من الغضب البادى ، فى صوت رئيسه ووجهه :
ـ لقد خالفت كل القواعد .
بث محاولة للرصانة فى صوته :
ـ لست أفهم ما تعنيه يا سيِّدى .
حمل صوته صرامة أكثر :
ـ بل تفهم .
اكتفى (جراهام) بالوقوف صامتًا ، فتابع رئيسه فى غضب :

ـ بعد عام من التحريات والبحث ، ظهرت دلائل على تورُّطك ، فى اغتيال ضابط المخابرات المصرى السابق ، المعروف لدينا بلقب (الباشا) .

تمتم ، محاولًا التظاهر بالهدوء :

ـ ولماذا أفعل ؟!

أجابه على الفور :

ـ الانتقام .

التقط (جراهام) نفسًا عميقًا :

ـ مبدأ الانتقام مرفوض تمامًا ، فى كل أجهزة المخابرات فى العالم ؛ فالانشغال به يبعد عن هدف أجهزة المخابرات الرئيسى .

تطلّع إليه رئيسه لحظات :

ـ أنت تعلم إذن !!

ثم نهض من خلف مكتبه :

ـ اسمع يا (جراهام) ... كل محاولاتك هذه لن تجدى نفعًا .

غمغم :

ـ أية محاولات ؟!

تابع رئيسه ، وكأنه لم يسمعه :

ـ المصريون بذلوا جهدًا غير طبيعى ؛ لتعقُّب مطلق النار ، حتى توصّلوا إليه أخيرًا .

هزَّ (كتفيه) :

ـ يبدو أنهم قد ازدادو براعة فى الآونة الأخيرة .

رمقه رئيسه بنظرة قاسية ، واستطرد :

ـ بأساليبهم ، حصلوا على اعتراف ، وعلى اسم الرجل ، الذى أسند إليه تلك المهمة .

قال (جراهام) فى حذر :

ـ هذا عظيم ... ما شأنى أنا بهذا ؟!

اعتاد رئيسه تجاهل تعليقاته ، وهو يقول فى صرامة :

ـ القاتل أرشدهم إلى سير (شيلدون) ، زعيم الصفقات المشبوهة فى (بريطانيا) .

ثم مال نحوه ، واكتسب لهجته قسوة :

ـ ولأن سير (شيلدون) مراقب ، من المكتب الخامس البريطانى ، فقد أمدونا بعدة صور ، وفيلم سينمائى ، للقائك مع سير (شيلدون) .

انعقد حاجب (جراهام) فى شدة :

ـ صور وفيلم ؟!

ثم استدرك فى تخاذل :

ـ كان هذا بشأن العمل ، و ...

قاطعه رئيسه بصرخة :

ـ كاذب .

احتقن وجه (جراهام) فى شدة ، ورئيسه يتابع فى حدة :

ـ كل خطوة تخص العمل ، يقوم بها أحد هنا ، لابد وأن تدوّن وتسجّل ، مع توقيت دقيق ، ولا توجد وثيقة واحدة ، تقول : إنه كان عليك لقاء سير (شيلدون) ، فى أية فترة .

غمغم :

ـ سيِّدى ... إننى ...

صاح به :

ـ أنت كسرت كل القواعد ، من أجل انتقام شخصى ، وهذا أسوأ ما يفعله رجل (موساد) .

بدا صوت (جراهام) مرتجفًا :

ـ هل يعنى هذا أن ...

قاطعه فى صرامة :

ـ لن يتم فصلك من (الموساد) ، ولكن ستتم إحالتك إلى عمل ورقى ، لمدة غير محدودة .

ازداد احتقان وجه (جراهام) ، وعجز لسانه عن النطق ، فتابع رئيسه بكل صرامة :

ـ حتى يرى الرؤساء أمرهم بشأنك .

غادر (جراهام) المكان ، ووجهه ما زال محتقنًا فى شدة ، وأثناء مروره عبر الممر ، الذى يقود إلى الباب الخارجى ، عبر إلى جواره ضابط شاب ، فى الاتجاه المضاد ، وأدى له التحية العسكرية ، فأجابها فى حركة غريزية ، وما إن غادر المبنى ، حتى استعاد ذهنه هيئة ذلك الضابط الشاب ، الذى بدا له مألوفًا لسبب ما ...

ولكن ذهنه المحتقن لم يدرك أو يذكر أين رآه ...

أبدًا ...

***

لم يصدِّق ذلك العميل نفسه ، وهو يجلس فى حجرة مدير المخابرات المصرية حتى أنه سأل فى اضطراب :

ـ أنحن حقًا فى (مصر) ؟!

أجابه المدير ، مع ابتسامة هادئة :

ـ حمدًا لله على سلامتك .

هزَّ العميل رأسه :

ـ يا إلهى !! ... لم أتصوَّر أبدًا ، أننى سأطأ أرض (مصر) مرة أخرى ... لقد اعتقدت أن نهايتى ستكون هناك .

غمغم المدير :

ـ ولكنك هنا .

هتف الرجل ، وقد شمله حماس عجيب :

ـ أين ذلك الشاب المعجزة ، الذى فعل هذا ؟!... لقد تصوَّرته ضابطًا إسرائيليًا ، عندما دخل إلى الزنزانة فى ثقة شديدة ، متحدثًا العبرية بإجادة بالغة ... ولقد أسقط الحراس الخمسة فى ثوان قليلة ، وعلى نحو مذهل ، حتى أكاد أجزم ، أنه فى إحدى اللحظات ، كان يضرب بأطرافه الأربعة ، فى آن واحد .

شعر المدير بمزيج من الفخر والاستمتاع ، وهو يستمع إليه ، متراجعًا بمقعده ، والعميل يواصل فى انفعال :

ـ وفى دقائق ، حوَّلنى إلى جندى إسرائيلى ، وغادرت خلفه ، وهو يسير بمنتهى الثقة ، كما لو كان ضابطًا إسرائيليًا حقيقيًا ، وقاد السيارة بنفسه ، حتى وصلنا إلى مطار اللد ، وهناك ، وبوثيقة زائفة ، وضعنا فى طائرة نقل حربية إسرائيلية ، لم تكد ترتفع فى الجو ، حتى سيطر على طياريها ، وقادها فى مهارة ، متجاوزًا الحدود ، و ...

الانفعال ، الذى شمل كيانه ، جعل حلقه يجف ، وصوته يشحب ، فاعتدل المدير :

ـ ومالنتذا هنا .

زفر الرجل ، وهو يهزّ رأسه :

ـ ما زلت أعجز عن الاستيعاب .

ثم لوّح بكفيه فى حماس :

ـ إننى لم أدرك أنه (مصرى) ، إلا بعد أن عبرت الطائرة الحدود ، متجاوزة كل شبكات الرادار ، وأجرى اتصاله اللاسلكى معكم .

ومال نحو المدير :

ـ هو واحد منكم ... أليس كذلك ؟!

صمت المدير لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ يمكننى أن أضمن لك هذا .

وكان قوله بمثابة قرار رسمى ، بإنهاء خدمة (أدهم) ، فى قوات الصاعقة المصرية ، وضمه إلى الضباط العاملين فى مجال آخر تمامًا ...

فى عالم المخابرات ...

المخابرات العامة المصرية .

***



الفصل الأخير

انحنى (حسام) ، يطبع قبلة على جبين زوجته (منال) ، هامسًا :

ـ كل عام وأنت بخير ... اليوم تمر تسع سنوات على زواجنا .

ابتسمت فى حياء :

ـ كل عام وأنت طيب ... السنوات تمر فى سرعة .

التقط كفها ، وطبع عليه قبلة حب :

ـ السنوات معك تمضى كدقائق .

احمر وجهها خجلًا ، وحاولت تغيير الموضوع :

ـ المفترض أن يحضر (أحمد) و (أدهم) ؛ للاحتفال معنا الليلة .

غمغم فى حذر :

ـ أأنت واثقة ؟!

التفتت إليه فى قلق :

ـ ماذا تعنى ؟!

تراجع يهزُّ كتفيه :

ـ لا شىء ، ولكن (أدهم) فى مهمة ، حسب آخر معلوماتى ، و (أحمد) ديه محاضرة فى (سويسرا) .

قالت فى إصرار :

ـ قالا أنهما سيحضران .

ابتسم ، وهو يضع ذراعه على كتفها :

ـ إذن فسيفعلان .

تنهّدت :

ـ لست أدرى كيف كان سيصير إليه حالى ، لو لم نتزوَّج ؟!... (أحمد) دائم السفر ، بين (اليابان) و (السويد) و (إنجلترا) ، لعمل المحاضرات ومواصلة الأبحاث ، فى مجالات جراحات المخ والأعصاب ، أما (أدهم) ، فمنذ التحق بعملكم ، لم أعد أراه تقريبًا .

ثم لوَّحت بكفها :

ـ لقد ابتاع حتى شقة أخرى ، فى حى المهندسين .

ضحك :

ـ هذا أمر طبيعى يا حبيبتى ... الكل ينضج .

غمغمت فى أسى :

ـ ويبتعد .

ربَّتت عليها فى حنان :

ـ هذه سنة الحياة .

تطلَّعت إليه :

ـ وماذا عن سنن الحياة الأخرى ؟!

سألها مبتسمًا :

ـ ماذا تعنين ؟!

مطَّت شفتيها :

ـ كلاهما لم يتزوَّج بعد .

ضحك :

ـ لا تقلقى ... سيفعلان .

سألت فى لهفة :

ـ متى ؟!

اتسعت ابتسامته :

ـ عندما يحين الوقت المناسب .

* * *

« لا يا (منى) ... هذا يتجاوز كل الحدود ... »

حاولت (منى) أن تبتسم ، وهى تقترب من والدها الغاضب :

ـ ماذا حدث الآن ؟!

أجابها (توفيق) فى ضيق :

ـ عندما أصررت على الالتحاق بأكاديمية الشرطة ، عقب تخرُّجك ، وتجاهلت رغبتى ، قلت إن هذا شأنها ، ولكن أن تنتقلى من الشرطة إلى المخابرات ، فهذا أمر غير مستساغ أو مقبول .

جلست إلى جواره :

ـ أولًا ، لا أحد يفعل هذا بإرادته ... لقد جاءنى ترشيح من جهاز المخابرات ، وذهبت لعمل كل الاختبارات اللازمة ، التى أسفرت عن قبولى .

أشاح بوجهه :

ـ لم أسمع أبدًا عن ضابط مخابرات أنثى .

ربَّتت على كفه ، فى محاولة لتهدئته :

ـ أمور المخابرات كلها ، لم يسمع بها أحد .

قال فى أسى :

ـ ولكنك ترغبين فى هذا .

ابتسمت وهزّت كتفيها :

ـ أكون كاذبة ، لو أجبت بالعكس .

تنهّد فى عمق :

ـ هل لديك فكرة ، عما ستفعلينه هناك ؟!

أجابت فى بساطة وهى تبتسم :

ـ سأذود عن الوطن .

تنهّد مرة أخرى :

ـ يصعب منعك من هذا .

قبّلت يده :

ـ أرجوك ألا تفعل يا أبى .

خفض عينيه ، ولاذ بالصمت بضع لحظات ، قبل أن يلتفت إليها :

ـ لست أشعر بارتياح كاف ، ولكن على بركة الله .

مرة أخرى قبّلت يده ...

فى حب ...

***

« كنت واثقة من أنكما ستأتيان ... »

قالتها (منال) فى فرح ، وهى توزّع قبلاتها على (أحمد) و(أدهم) ، فغمغم الأوّل مبتسمًا :

ـ لم يكن من الممكن أن أفوّت المناسبة يا عمتى .

بدا (أدهم) شديد الرصانة ، وهو يغمغم :

ـ ولا أنا .

بدا (حسام) سعيدًا :

ـ لم أتصوَّر أنكما ستستطيعان الحضور فعليًا .

هتف (أحمد) :

ـ ولكننا فعلناها .

قالت (منال) فى سعادة :

ـ سنقضى إجازة سعيدة معًا كالسابق .

بدا التردُّد على (أحمد) ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أننى مضطر للعودة إلى (طوكيو) ، فى السادسة صباحًا يا عمتى .

تطلَّعت إليه فى أسى ، ثم نقلت بصرها إلى (أدهم) :

ـ وماذا عنك ؟!

ابتسم :

ـ أحب أن أقضى العمر كله إلى جوارك يا عمتى ، ولكن ...

خفق قلبها ، وهى تهتف :

ـ ولكن ؟!

تابع فى خفوت :

ـ ولكننى مضطر للرحيل ، بعد ثلاث ساعات .

سأله (أحمد) :

ـ إلى أين ؟!

التفت إليه :

ـ إلى حيث أكمل مهمتى .

لم يحاول أحدهم سؤاله عما يعنيه ، و (حسام) يقول :

ـ دعونا نبدأ الاحتفال فورًا إذن .

كان احتفالًا عائليًا بسيطًا ، انتهى مع رحيل (أدهم) ، وذهاب (أحمد) للنوم ، فألقت (منال) رأسها على صدر (حسام) :

ـ ليلة جميلة ، ولكنها انتهت للأسف .

مسح على شعرها فى حنان :

ـ لقد أتيا ، وهذا هو المهم .

غمغمت :

ـ من الواضح أن الحياة قد استولت عليهما تمامًا .

قبّل جبينها :

ـ هذه سنّتها .

واحتضنها فى رقة ، متابعًا :

ـ المهم أنهما ناجحان ... (أحمد) صار من أطباء جراحات المخ والأعصاب المعروفين ، و (أدهم) صار أشبه بالأسطورة فى قسم الخدمة السرية فى الجهاز .

غمغمت :

ـ ولم يتزوّجا بعد .

ابتسم ابتسامة كبيرة :

ـ لكل شىء وقته .

***

« ولقد حان الوقت ... »

قالتها (سونيا جراهام) فى حزم ، فابتسمت (راشيل) ، وتحسَّست خدها :

ـ أظن هذا ... لقد صرت صاروخ جمال يا (سونيا) ، وما دربتك عليه ، سيجعل من الصعب عليهم رفضك .

مطَّت شفتيها الجميلتين :

ـ سيكونون حمقى إن فعلوا .

ابتسمت (راشيل) فى إعجاب ، وعادت تتحسَّس خدها :

ـ ثقتك بنفسك تتزايد يا (سونيا) .

استدارت تتطلَّع إلى نفسها ، فى مرآة كبيرة ، وتحسَّست جسدها :

ـ أمر طبيعى ... من يمكنه مقاومة هذا ؟!

هزَّت (راشيل) رأسها ، مع ابتسامة كبيرة :

ـ لا أحد .

ثم أشارت بسبَّابتها :

ـ المهم ألا تنسى أبدًا ، ما علمتك إياه .

جمعت ابتسامة (سونيا) ، بين الثقة والشراسة :

ـ أذيب كل القلوب ، ويبقى قلبى صلبًا .

أومأت (راشيل) برأسها :

ـ الأكثر عاطفة أكثر ضعفًا ... لا تمنحى أحدًا أبدًا ما يريد ، ولكن أشعريه دومًا أنه قاب قوسين أو أدنى من هذا ، فيظل كالعبد تحت قدميـك ، طوال الوقت .

غمغمت ، وهى تنظر إلى صورتها فى المرآة بإعجاب :

ـ تعلّمت هذا .

ثم التفتت إليها :

ـ وأتوق لوضع هذا موضع التنفيذ .

تنهّدت (راشيل) :

ـ قريبًا ... قريبًا جدًا .

* * *

« لا تأملى هذا ... »

قالها (مايكل) ضاحكًا ، وهو يواجه شقيقته (كارولينا) ، التى نضجت ، وصارت فتاة بارعة الحسن ، قاسية القلب ، صلبة الرأى :

ـ ولماذا يا (مايكل) ... هل تتصوَّر مثل أبى ، أن النساء لا يصلحن لإدارة العائلة !!

هتف :

ـ بالتأكيد ... إدارة عائلة كعائلتنا ، أشبه بإدارة حرب ... تحتاج إلى معرفة كاملة ، واستراتيجيات ، وتكتيك ، وخطط قتالية ، والكثير من القسوة فى بعض الأحيان .

رفعت أحد حاجبيها :

ـ ألا أمتلك كل هذا ؟!.

لوَّح بكفه :

ـ ولكنك فتاة .

قالت فى شراسة :

ـ من أرشدك إلى معظم الخطط الناجحة ، فى السنوات الخمس الأخيرة ؟!

زفر فى ضجر :

ـ هذا لا يكفى .

قالت فى عناد :

ـ ولماذا ؟!

لوَّح بيده :

ـ العائلات لن تتقبَّل هذا .

قالت فى شراسة :

ـ سأجبرهم على قبوله .

هتف ، مستنكرًا :

ـ تجبرينهم ؟!

ثم انفجر ضاحكًا ، على نحو استفز كل مشاعرها ، وجعلها تعقد حاجبيها فى شدة ، وتقسم فى أعماقها على أنها ، فى يوم ما ، ستثبت له أنه على خطأ .

وقد يكون هذا اليوم قريبًا ...

قريب جدًا ...

***

« كيف حالك يا صديقى ؟!... »

قالها (أدهم) فى هدوء ومودَّة ، فتهلَّلت أسارير (قدرى) ، وترك شطيرته الضخمة على المنضدة ، واندفع يعانق (أدهم) :

ـ (أدهم) ... لقد عدت .

غمغم (أدهم) :

ـ منذ ساعة واحدة .

ربّت عليه فى حرارة :

ـ وكيف كانت مهمتك ؟!

ابتسم ابتسامة هادئة :

ـ ناجحة .

ثم استطرد ، وهو يجذب مقعدًا :

ـ ولقد أفادنى ما زوَّدتنى به كثيرًا ... وبالمناسبة ، لقد أعدت ماتبقى إلى خزانتك .

تراقصت ابتسامة ، على شفتى قدرى :

ـ ولكنها مزوّدة برتاج قوى :

اكتفى (أدهم) بابتسامة ، جعلت (قدرى) يقهقه :

ـ أراهن أن فتحها لم يستغرق منك ، أكثر من دقائق معدودة ، وهذا يسعدنى ، ويملأ نفسى بالفخر ؛ لأننى من علّمك هذا .. ما رأيك فى كوب من الشاى ؟!

هزَّ كتفيه:

ـ لا وقت لهذا .

بدت الدهشة على (قدرى) :

ـ قلت إنك عدت منذ ساعة واحدة .

ابتسم ابتسامة رصينة :

ـ وسأسافر بعد ساعتين ، فى مهمة جديدة .

ثم مال نحوه :

ـ وسأحتاج إلى بعض الأوراق .

غمغم (قدرى) :

ـ أنا رهن إشارتك .

ثم التقط لوحة من جواره :

ـ اليوم ذكرى وفاة والدك ، رحمه الله .

خفض (أدهم) عينيه لحظة ، ثم عاد يرفعهما :

ـ أطال الله فى عمرك .

ناوله اللوحة :

ـ لقد صنعت هذه بالمناسبة .

كانت لوحة زيتية ، بدت وكأنها صورة ضوئية ملوَّنة لـ (صبرى) ، فتطلَّع إليها (أدهم) فى انبهار ، ثم عاد بعينيه إليه :

ـ كيف أشكرك ؟!

بدا التأثر واضحًا ، فى صوت (قدرى) وملامحه :

ـ تشكرنى ؟!... أنت لا تدرى كم يمثل والدك بالنسبة لى ... إننى أدين له بكل ما وصلت إليه .

ومسح دمعة ، ترقرقت من عينيه ، وحاول أن يبتسم ، وهو يضيف :

ـ ويومًا ما ربما ... ربما أروى لك كيف .

ربَّت (أدهم) على كتفه المكتظ فى مودَّة ...

وصداقة ...

عميقتين ...

« خمس رصاصات من ست ... لا بأس ... »

قالها (أشرف) فى هدوء ، جعل (منى) تغمغم فى توتر :

ـ لا بأس ؟!... إنه هـدف يتحرَّك فى سرعـة ، ويغيِّر مساره عشوائيًا ، وأنا أصبته بخمس رصاصات من ست .

أتاها صوت هادئ من خلفها :

ـ هذا لا يكفى .

التفتت تتطلَّع إلى الرجل الوسيـم الهادئ ، الذى يقف عند مدخـل قاعـة الرماية ، وغمغمت :

ـ وهل يمكنك أن تفعل ما هو أفضل ؟!

ابتسم (أشرف) ، فى حنان أبوى :

ـ بالطبع .

نقلت بصرها إلى (أشرف) :

ـ أأنت واثق ؟!

التقط (أشرف) مسدسًا حديثًا نسبيًا ، تحوى خزانته تسع رصاصات ، وألقاه نحو الرجل ، وضغط زر حركة الأهداف ، فى الوقت ذاته هاتفًا :

ـ (أدهم) .

لم يكد (أدهـم) يلتقط المسـدس فى الهواء ، حتى أداره نحـو الهـدف المتحرِّك ، وأطلق الرصاصات التسع كلها ، فى أقل من عشر ثوان ...

واتسعت عينا (منى) عن آخرهما ...

فالرصاصات التسع كلها أصابت الهدف ...

وبمنتهى الدقة ...

وغمغم (أشرف) ، فى لهجة تجمع ما بين الفخر والحنان :

ـ أدرِّبه منذ كان فى العاشرة ... وهو يجيد هذا بيده اليسرى أيضًا .

نقلت نظرة الدهشة ، بين (أشـرف) و (أدهـم) ، وبدت لها العبارة غير منطقية ، وهى تتجه نحو (أدهم) :

ـ تشرّفنى معرفتك يا سيِّدى ... أنا (منى) ... (منى توفيق) ... التحقت بالجهاز ، منذ أربعة أيام .

مدَّ يده إليها :

ـ مرحبًا بك ... وأنا (أدهم) ... (أدهم صبرى) .

وتصافحا ...

وكانت أوَّل مصافحة ، وأوّل لقاء بينهما ...

على الإطلاق .

***

تمت بحمد الله

الرحاب

٢٦ مايو ٢٠١٨ م

